المذهب الظاهرى ونشأته وتطوره بالمغرب والأندلس حتى نهاية الموحدين

د. عبدالباقى السيد عبدالهادى (*)

نشأة المذهب الظاهرى وتطوره

نشأ المذهب الظاهرى فى بغداد على يد داود بن على الأصفهانى أول من نادى به ودعا إليه من أهل السنة . ويرجع ظهور المذهب إلى عدة أسباب منها :

أولا : الإسراف في استخدام القياس والالتزام به والذي أدى الي اتساع الشقاق من الفروع والسنن إلي الأصول ، فقد اختلف أصحاب الرأي في التوحيد وصفات الله تعالى وقدرته وفي نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار وعذاب القبر وفي اللوح المحفوظ... وغير ذ لك من الأمور التي لايعلمها إلا الله (١)

ثانيا : تأثر داود بالإمام الشافعى(ت٢٠٤هـ/٨١٩م) فى الأخذ بالنصوص وتعزيزها ، مع كثرة رواية السنة فى عصره ؛ مما جعله يتجه للنصوص وحدها ، وذلك لأن الشافعى كان يفسر الشريعة بالنصوص مع الحمل عليها بالقياس الجلى فقط(٢) .

ثالثا : ازدهار الحركة الباطنية التى تدعو إلى ضرورة وجود إمام مستتر يعلم الناس ما ليس فى وسعهم أن يتعلموه من ظاهر الآيات والأحاديث (٣) .

وفى عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) عرفت الأندلس المذهب الظاهرى على يد عبدالله بن قاسم بن هلال الذى رحل إلى المشرق والتقى بداود بن على ، وأدخل كتبه كلها الأندلس (٤) ، وفى عهد عبدالرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) صار لهذا المذهب أتباعه بفضل جهود منذر بن سعيد البلوطى قاضى القضاة الذى كان يؤثره ويجمع كتبه ويحتج له ويأخذ نفسه وذويه به (٥) ، ويبدو أن جهد منذر كان مقدمة لازدهار المذهب(٦) ، وقد ظل أمر الظاهرية فرديا حتى نجح ابن حزم (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م) فى إحياء المذهب من رقدته، وذلك بالتصنيف والمناظرة والجدل وتنشئة تلاميذه ومريديه على أصول المذهب ، ونشر المذهب بين أصحابه ، فتابعه على ذلك جماعة اعتنقوا المذهب

(*) مدرس تاريخ إسلامى .

ودافعوا عنه [٧]، وبذلك تحول أمر الظاهرية من المرحلة الفردية إلى المرحلة الجماعية ، والتى كانت مقدمة لما تم فى عهد الموحدين من اتخاذ دولتهم المذهب الظاهرى مذهبا رسميا لها ، وإن كان أمر المذهب متفاوتا ما بين إقدام وإحجام فى عهد حكامها .

أما عن دخول المذهب الظاهرى للمغرب فلم تمدنا المصادر التى بين أيدينا بمعلومات عن تاريخ دخوله ولا على يد مَن من الفقهاء ولا فى عهد مَن مِن الولاة والحكام ، ولكن يمكننا أن نتوقع أن عبدالله بن قاسم الذى نشر المذهب فى الأندلس كان له دور أيضا فى نشره بالمغرب أو على الأقل ترك أثرا بين المغاربة المالكيين للحديث عن المذهب الظاهرى وأصوله ، وذلك أثناء رحلته من المشرق إلى الأندلس والتى حتما كانت تمر على المغرب.

ويعنى القول بالظاهر - الذى استخدمه داود والظاهرية بعده - عدم صرف معنى النص فى القرآن والسنة من معناه الواضح بذاته الذى يستنبطه العقل بحكم منطوق اللغة ، إلى غيره من التأويل ما دام ليس هناك نص آخر أو إجماع يصرفه عن معناه الظاهرى [٨] .

ويمكن أن نفسر تواجد الظاهرية بالمغرب والأندلس فى عدة أسباب منها:

أولا : الثورة على المدرسة المالكية التى جمدت النصوص ، وارتضت التقليد ، وعارضت كل محاولة للاجتهاد والتجديد ، حتى لقى أتباعها انتقاداً حاداً من أكابر المالكية المجتهدين وهو ابن عبدالبر (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، لتقصيرهم عن علم الأصول ، وعدم قدرتهم على الترجيح بين الآراء المتعددة فى المذهب ، واتهامهم من خالف قول فقهائهم الأول بمخالفة القرآن والسنة ، وإجازتهم العمل بالروايات المتضادة فى الحلال والحرام [٩] .

ثانيا : التفاف الناس حول كل حركة جديدة من شأنها التغيير . خاصة إذا قوبل أتباعها بالمعارضة والاضطهاد .

ثالثا : الجهود التى بذلها محدثو الأندلس . خاصة بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح وقاسم بن أصبغ [١٠] فى التمكين لمدرسة الحديث بإدخال الكثير من كتبها إلى الأندلس بعد عودتهم من المشرق ، وبكثرة الأحاديث والأسانيد وجدت المادة التى يعتمد عليها الفقه الظاهرى .

رابعا : ازدهار القول بالباطن فى كل من المغرب والأندلس ، ومن ثم فلابد من وجود طائفة تتصدى لآرائهم التى تحمّل اللفظ أكثر مما يحتمل ، وبالتالى يخرج عن مساره الصحيح ويقع التحريف ، فكانت المدرسة الظاهرية .

العلاقة بين المالكية والظاهرية قبل الموحدين :

لقى المذهب المالكى الحظوة فى المغرب والأندلس للأسباب التى أسلفناها آنفا ، ومن ثم كان الخروج عليه خروجا على الإسلام من وجهة نظر المالكية، ولذا فقد تعرض كل من يخالف مذهبهم للاضطهاد والتنكيل أيا كان مذهبه ، وفى حالة ما إذا وصل أحد الظاهرية إلى منصب هام فى الدولة كالقضاء- وذلك لإعجاب أحد الحكام به- كانوا يفرضون على القاضى أن يقضى بين الناس بمذهبهم المالكى ، وذلك مثل ما وقع لمنذر بن سعيد البلوطى الظاهرى [١١] ، وما دون ذلك كان يتعرض للاضطهاد مثل شيخ ابن حزم أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الظاهرى الذى منع من التدريس بجامع قرطبة . كما تعرض ابن حزم هو الآخر للاضطهاد فقد فرض المالكية الحظر على الفكر الحزمي ومنعوا صاحبه من التدريس بجامع قرطبة و نددوا به في المجالس والندوات وحذروا العامة من الاستماع إلى آرائه و أقواله ، وكتبوا الكتب الكاذبة إلى الحكام لتحريضهم عليه ، وراسلوا كبار فقهائهم بالأندلس وخارجها للرد عليه [١٢] .

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ، بل راسلوا ابن حزم نفسه وجمعوا من ألفاظهم أقبح الألفاظ وأسوأ العبارات واصفين إياه بالابتداع في الدين والغفلة و البلادة و التهكم علي الصحابة و قلة الفهم والجهل والفتون وخبث السريرة وقلة الدين وضعف العقل وقلة التمييز والتحصيل فضلا عن رميه بتبديع الصحابة. لقد ظنوا أن ذلك سوف يثنيه عن عزمه واستمراره فيما هو من الدعوة لمذهبه الظاهري ولكن هيهات، هيهات أن يركن رجل مثله جعل من نفسه مصلحا اجتماعيا .فقد فند كل ما اعترضوا به عليه في أوضح و أجلى رد منبها على جهلهم بالأصول وتقليدهم للفروع ، وبعدهم عن المعرفة الصحيحة للدين مستخدما ألفاظا هي أشد وأنكى من ألفاظهم [١٣] ألم يقل عنه ابن العريف الصوفي: " لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان" [١٤] هذه الشدة اللسانية كان مرجعها الأكذوبات والافتراءات التي انهالت عليه من قبل خصومه من المالكية ، فضلا عن تكوينه النفسي والجسدي. لقد تزعم لواء المعارضة جماعة من الفقهاء في حياة ابن حزم منهم أبو الوليد الباجي ، ومحمد سعيد الميورقي الذي دعى الباجي لمناظرة ابن حزم بعد ما ساد بالجزيرة وابن البارية الذي ناظره ابن حزم في حضرة

أحمد بن رشيق حاكم ميورقة ووصفه بقوله: "وقد استتبنا اللعين المرتد المتوجه إليكم بهذه الأكذوبات والمفتراه والفضائح المفتعلة "[١٥] ومكي بن أبي طالب الذي ناظره ابن حزم وأبو عمرو عثمان بن سعيد الداني الذي نافر ابن حزم وهجاه[١٦].

لم يرضخ ابن حزم إزاء ما تعرض له بل عمد إلى مذهبه فنقحه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه ودعا الأندلسيين لأصوله وعارض ما اعتمدت عليه المالكية من أصول تختلف مع مذهبه الظاهري من خلال المناظرة [١٧] وتصنيف الكتب في ذلك مثل: معارضته للقياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل[١٨] وانتقاده لمخالفتهم الصحابة الذين لا يعرف لهم مخالفا في أربعة عشر مسألة من الطهارة وخمس وثلاثين مسألة من الصلاة ومسائل عدة خالفوا فيها الإجماع المتيقن وجمع ذلك في كتاب سماه (ما خالف فيه المالكية الطائفة من الصحابة) [١٩] وانتقد قولهم بأن الموطأ أجل المصنفات ، وجعله في المرتبة السابعة والعشرين بعد معظم مصنفات الحديث المشهورة ؛ كصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي ومسند احمد بن حنبل...إلخ.[٢٠] كما انتقد الواضحة في الفقه المالكي لعبد الملك بن حبيب والمستخرجة من الأسمعة وهى المعروفة بالعتبية لتلميذه محمد بن أحمد بن عبد العزيز المعروف بالعتبي لما فيهما من غرائب الأحاديث والأقوال وقوله أن كلا من عبد الملك بن حبيب والعتبي ليسا من ثقات أهل الحديث. في حين أن المالكية لا تنكر فضلهما واستحسانهما وتعتبرهما من أكابر فقهائهم[٢١] .

وبعد وفاة ابن حزم تزعم لواء المعارضة ضده وضد الظاهرية (عيسى بن سهل الأسدي الجياني) صاحب الأحكام الكبرى والذي جمع كتابا سماه "التنبيه على شذوذ ابن حزم" وصفه فيه بالجهل والضلال والفسق والكفر والإلحاد ومفارقة جماعة المسلمين ووصف جميع مصنفاته بأنها لغو يجب الإعراض عنه[٢٢] ، وهذا الكلام باطل من وجوه :

الأول : أنه وليد التعصب لمذهبه المالكي وكله خليط من الباطل لا يشوبه شائبة من الحق فكتب ابن حزم جزء كبير منها بين أيدينا وليس فيه شيء مما ذكر.

الثاني : أن معظم الفقهاء والأدباء والمحدثين والمؤرخين من المخالفين لابن حزم في المذهب و الموافقين أجمعوا على إمامته و ضبطه وإحاطته بعلم النقل و العقل و لم يرمه أحد بكفر أو شرك أو بدعة ولا قالوا عنه أنه قال عن العلماء ما لم يقولوا بل أجمعوا على صدقه وعدالته ودقته في النقل عن العلماء [٢٣] بل إن أحد علماء الشافعية الكبار وصفه بقوله الإمام الأوحد [٢٤] .

الثالث : أن جمهور المخالفين له في المذهب تلقوا كتبه بالقبول وامتدحوا ما فيها من العلم وحسبنا في ذلك قول اثنين من أكابر علماء المذهب الشافعي في بعض مصنفات ابن حزم أولهما أبو حامد الغزالي الطوسي الذي قال: " وجدت في أسماء الله تعالى كتابا ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه و سيلان ذهنه " والثاني هو الإمام المجتهد المطلق العز بن عبد السلام الذي قال: " ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلي لابن حزم وكتاب المغنى للشيخ الموفق و تابعه الذهبي على قوله [٢٥] .

الرابع : أن قول ابن سهل السابق سرعان ما يرفضه القارىء الحصيف إذا ما علم أن من الشنع التى شنع بها على (ابن حزم) ما ذكره بكتابه (الفصل) من إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، وهى المسألة التى حسمها القرآن حسما لا يحتاج لجدل أو نقاش إذ إنها من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة .

وفى عهد المرابطين تولى القاضى المالكى أبو بكر بن العربي مهمة الحط من شأن ابن حزم والظاهرية تنفيرا للناس عن الإقبال على كتبه ومذهبه . كما شارك ابن العريف الصوفى المالكى(ت٥٣٦هـ/١١٤١م) القاضى ابن العربى المالكى فى نقده للظاهرية فقد وصف الظاهرية بالمذهب المذموم الذى سقط فيه داود وأتباعه ، ولا قدوة لهم فيه إلا الخوارج فى وقت الصحابة ، وأهل النفاق فى وقت الرسالة ، وصنف مذهبهم ضمن المذاهب المنكرة والمذمومة فى الدين، بيد أن الغريب فى ابن العريف أنه قال عن الظاهرية بأنها مذهب يشبه مذهب رواة الحديث والفقهاء[٢٦] وهو الأمر الذى يذهب بنقده كله ويحمله طابع التعصب ضد منهج الفقهاء والمحدثين بأسرهم ، وليس مذهبا بعينه ، ولعل مرجع ذلك منهجه الصوفى الذى تبناه والذى لقى معارضة من قبل العديد من الفقهاء والمحدثين ، ولعل تشبيه ابن العريف للظاهرية تحديدا بالخوارج وأهل النفاق راجع إلى موقف الظاهرية وابن حزم تحديدا من الصوفية والكرامات فقد أفتى بضرورة تجنب استخدام الرمز فى النصوص الشرعية ، وهو من الأمور الأساسية عند الصوفية ، كما عارض حدوث الكرامات وهى إحدى دعائم التصوف[٢٧] كما أن ابن حزم انتقد مدرسة ابن مسرة الصوفية والتى يعتبر ابن العريف امتدادا لها [٢٨] .

لقد بلغ التقليد لمذهب مالك مبلغا فى عهد المرابطين حتى أفضى ذلك بهم إلى التعصب وتحريم أى مذهب غير المذهب المالكى ، وتحول الأمر من مرحلة التنظير بين العلماء إلى مرحلة التطبيق فنجد علياً بن يوسف بن تاشفين لم يقرب منه سوى

من كان عنده علم بفروع مذهب مالك ، فازدهرت فى عهده كتب المذهب ونبذ ما سواها ، ونسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله [٢٩] ، ولقد تعرض أهل الظاهر فى عهده للاضطهاد والتنكيل لرفضهم الاعتماد على مذهب مالك ، ودعوتهم للاجتهاد واستنباط الأحكام من القرآن والسنة ، ومن هؤلاء الفقيه محمد بن أحمد بن يحيى الأنصارى الخزرجى الميورقى الأصل ، الذى ضرب بالسوط بأمر على بن يوسف ، وسجن وقتا ثم سرحه بعد فترة [٣٠]، وفى عهد تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين نراه يتابع سياسة أبيه فيرسل رسالة إلى والى بلنسية وقاضيها وسائر الفقهاء والوزراء والصلحاء ببلنسية يدعوهم إلى الاقتصار فى الأحكام والفتوى والشورى على مذهب مالك بن أنس ، ومن يعمل بغير ذلك فقد اتبع الهوى [٣١] .

لقد كان لهذه السياسة الرسمية من قبل الدولة أثر على فقهاء المالكية الذين اتفقوا فيما بينهم فى عهد المرابطين على أن اعتقاد الظاهرية وإنكار القياس جرحة وبدعة ، والواقع أن الفتوى السابقة لم يتبناها سوى فقهاء المرابطين ومقلدى المالكية ، وليس أدل على ذلك من أن أحد قضاة المالكية فى عهد المرابطين قبل شهادة شاهد ظاهرى، ولم يعتبره مبتدعا ، هنا هاج المالكية وماجوا ورفعوا الأمر إلى ابن رشد الجد أحد مجتهدى ومحققى المذهب المالكى لعله يؤيد فقهاء السلطة والمقلدين فيما ذهبوا إليه ، لكن رأيه جاء مخيبا لآمالهم إذ قال: "إن كان الشاهد من أهل الاجتهاد الراسخين ويعارض العلماء فى بعض وجوه القياس فليست جرحة ، وإن كان مقلدا متبعا للهوى فهى جرحة بأنه ينفى القياس" [٣٢] .

لقد ارتأى فقهاء السلطة والمتعصبون من المالكية أن يشكلوا جبهة موحدة من خلال فتوى تدين الظاهرية ، وذلك فى محاولة للحد منها ومطاردة أتباعها ، ومنع المالكية من التحول إليها ، خاصة وأن الظاهرية فى عهد المرابطين لم يكونوا قلة ، بل كانوا يشكلون الجناح الثانى لحركة المريدين بزعامة محمد بن الحسين الميورقى ، ومحمد بن خلف المعروف بأبى عبدالله الشبوقى ، ولقد اعترف القاضى ابن العربى المالكى نفسه بكثرة عدد الظاهرية فى عهد المرابطين [٣٣] .

الجدير بالذكر أن ميورقة كانت مركزا للمذهب الظاهرى فى الأندلس وذلك بفضل جهود ابن حزم وأتباعه فى الجزيرة فى ظل حاكمها أحمد بن رشيق[٣٤] ، وظل أمر المذهب راسخا حتى بداية عهد المرابطين ، وكان للصراعات المذهبية بين المالكية والظاهرية الأثر الكبير فى إثراء الحياة الفكرية فى جزر البليار ، وظهور علماء من المتكلمين برعوا فى علم الكلام والتوحيد ، ومن فقهاء الظاهرية الذين

اشتهروا بجدلهم مع فقهاء المالكية فى عهد المرابطين محمد بن سعدون بن مرجى الميورقى (ت ٥٣٤هـ/١١٣٩م) [٣٥] ، ومن أبرز الصراعات المالكية الظاهرية قبل عهد الموحدين ما وقع بين فقهاء المالكية وبين ابن تومرت صاحب النزعة الظاهرية فقهيا وجدليا.

بدأت علاقة ابن تومرت بالمرابطين وفقهائهم المالكية منذ عام ٥١٤هـ/١١٢٠م حينما ارتحل إلى مراكش عاصمة المرابطين ، وفيها قام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأراق الخمر وكسر آلات الطرب دون إذن أمير المسلمين على بن يوسف، هنا تطاير خبره بأمير المسلمين فأمر بإحضاره ، وفى هذا اللقاء دعا ابن تومرت علياً بن يوسف للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [٣٦] وقد أطرق على بن يوسف مليا يفكر فيما سمع وأمر بإحضار الفقهاء لمناظرة ابن تومرت واختباره ، وكان ابن تومرت عالما بالجدل والفقه والحديث ، فى حين كان فقهاء المالكية الذين حضروا لا علم لهم سوى بالفروع ، ومن ثم عجزوا عن إجابته وفهم خطابه ، وأخذتهم العزة بالإثم فدلسوا على أمير المسلمين وقالوا له: " هذا رجل خارجى مسعور أحمق صاحب جدل ولسان يضل جهال الناس ، وإن بقى بالمدينة يفسد عقائد أهلها" فأمره أمير المسلمين بالخروج من مراكش ، عندئذ خرج ابن تومرت فى مكان قرب مراكش ، وكان يأتيه بعض الطلبة يأخذون عليه ، وتكاثر أتباعه إلى ما يزيد على ألف وخمسمائة ، وكلهم موافقون له فيما قاله من طعن على المرابطين ، وكان بعض الفقهاء قد أغروا على بن يوسف بابن تومرت وقالوا له إنه يدعو الناس إلى إمامته ، وهنا عزم على بن يوسف على قتله ، وبعث من يأتيه برأسه ، لكن أحد تلامذته كان قد سمع ذلك فنبهه ، فخرج ابن تومرت مسرعا حتى بلغ تينملل وكان ذلك فى شوال ٥١٤هـ/١١٢٠م [٣٧] .

عندئذ أعلن ابن تومرت ثورته على المرابطين ودارت بينه وبينهم معارك مسلحة ، وحربا دعائية ، وكان ابن تومرت قد وجه فى البداية رسالة للمرابطين هى أول رسالة منه إليهم وصفهم فيها بالفئة الباغية والشرذمة الطاغية ودعاهم إلى تقوى الله واتباع السنة ، واختتمها بقوله: " وكتابنا هذا إليكم إعذار وإنذار ، وقد أعذر من أنذر والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضى" [٣٨] وقد اهتم ابن تومرت بالسنة فى رسالته هذه باعتباره محييا لها ، وإظهارا لمنهجه الظاهرى القائم على الدعوة للكتاب والسنة ، وتسفيها لما عليه المرابطون ؛ من اهتمام بالفروع فى الأحكام وترك الكتاب والسنة ، وتشير خاتمة الرسالة إلى تطور فكر ابن تومرت من مرحلة الأمر

بالمعروف إلى مرحلة القتال وهو ما سنلحظه فى رسالته التالية؛ فقد وجه ابن تومرت رسالة إلى أتباعة – ووسمهم بجماعة أهل التوحيد– دعاهم فيها إلى جهاد المرابطين إظهارًا للدين وإحياء للسنة ، ووصف المرابطين بالمجسمين المفسدين وبالكفر والطغيان وأكل أموال اليتامى وتقريب الفجار وشاربى الخمور والعصاة ، وجعل جهادهم فرضاً على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وأفتى بأن من قتل من المجسمين فهو فى النار ومن قتل من الموحدين المجاهدين فهو شهيد (٣٩) .

وقد جاءت هذه الرسالة بهذا العنف وهذه الشدة على أثر اتهامات كالها فقهاء المالكية بزعامة مالك بن وهيب لابن تومرت فى إطار الحرب الدعائية بين الطرفين منها: (هذا رجل يكفر الناس بالذنوب ، ويمنع من الصلاة على أهل القبلة – قتلى المرابطين الذين حاربهم الموحدون– ومن تاب لا يلزمه قضاء الصلاة والصيام وغير ذلك من العبادات ، ويرد المطلقة ثلاثا إلى زوجها ، وطرح مذاهب العلماء وكتبهم وخرج من الإجماع وكفر المسلمين واستحل الحرام المجمع على تحريمه واستحل دماء المسلمين وأموالهم وحريمهم وجعل أموال المسلمين غنيمة تخمس ، كما تخمس أموال النصارى ، وقام على الأمراء ونزع يده من طاعتهم ، وقد أجمع المسلمون على تحريم القيام عليهم ووجوب طاعتهم (٤٠) ، وقد رد ابن تومرت على ذلك وبين فساد أقوالهم (٤١) .

وقد لقيت دعوة ابن تومرت صدى بالمغرب ففى مدينة فاس ما إن سمع علماؤها بدعوته القائمة على العودة إلى الكتاب والسنة ونبذ التقليد حتى قصدوه ، ونافح عدد منهم مثل السلالجى (ت٥٦٤هـ/١١٦٨م) وابن الإشبيلى (ت٥٦٧هـ/١١٧١م) لنشر فكر ابن تومرت والرد على المرابطين ، واتهموهم بالضعف أمام العباسيين ، الذين استسلموا لهم بالدعاء على المنابر وإرسال الشعراء إليهم. لكن هذا التأييد لقى معارضة من قبل الفقهاء المؤيدين للمرابطين مثل ابن أبى معيشه ، وابن الملجوم ، وابن داود ، وابن المقيلى (٤٢) . لقد كان المحرك الأساسى لثورة ابن تومرت ضد المرابطين هو الفقه الظاهرى الثورى الذى درسه على يد الطرطوشى (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) أحد المهتمين بالفقه الظاهرى وكتب ابن حزم ، حتى إنه كان يجتمع مع أبناء ابن حزم وجماعة من الظاهرية لتصنيفها ومعرفة محتوياتها (٤٣) ، وقد استفاد ابن تومرت من الطرطوشى فى الثورة على التقليد والعودة إلى الكتاب والسنة والطعن على البدع والظلم (٤٤) والخروج على الحاكم إذا وقع شيء من الجور وإن قل (٤٥) وهى المسائل التى أصلها ابن حزم ودعا إليها فى كتبه.

وتجدر الإشارة إلى أن معارضة المالكية للظاهرية ترجع إلى عدة أسباب منها: رفض الظاهرية للرأى والقياس والاستحسان والتقليد والتعليل مما حدا بفقهاء المالكية إلى مجابهتهم لصرفهم عن منهجهم ، ومخافة من تحول البعض من المغاربة والأندلسيين إلى مذهبهم (٤٦) ، ومنها استطالة الظاهرية على فقهاء المالكية بفضل القول ، ولحنهم بالحجة حيث لا يجدون لهم ردا ، فضلا عن انتقاد أحدهم وهو ابن حزم لبعض آراء الأئمة الأربعة التى رأى مجانبتها للصواب (٤٧)، والواقع أن نقده لم يكن لذات الأئمة كما فعل ابن س هل وابن العربى ، بل كانت ردودا على بعض آرائهم فحسب ، أما الأئمة فكان شديد التبجيل لهم ، ووصفهم بأنهم مسلمون فاضلون يلزم توقيرهم والاستغفار لهم (٤٨) .

ومن هذه الأسباب مطالبة الظاهرية كل مسلم بقراءة القرآن والحديث بنفسه ، واستخراج الأحكام ، ورفض اتباع أقوال الأئمة دون السؤال عن البرهان والدليل المعتمد فى الفتوى ، أضف إلى ذلك تعويل بعض الظاهرية على دراسة الفلسفة والمنطق ، ودعوة أحدهم وهو ابن حزم لاستخدامهما فى الاستنباط الفقهى ، فى حين أن المالكية ينظرون إليهما على أنهما سببا للضلال والإلحاد (٤٩) ، كما كانت حدة ابن حزم وإفراطه فى الرد على المالكية بعنف سببا من هذه الاسباب حتى قال عنه ابن حيان المؤرخ الشهير : " فلم يكن يلطف بما عنده بتعريض ، ولا يزمه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه أحر من الخردل "(٥٠) ، وقال عنه ابن العريف الصوفي: " لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان"(٥١) ، وآخر هذه الأسباب اجتهادات ابن حزم الفقهية التى انفرد بها وخالف جمهور الفقهاء من أهل السنة ، بل خالف فيها إمام مذهبه داود بن على الأصفهانى ، ومن أشهر هذه المسائل (رفضه لكراء الأرض جملة) (٥٢) ، فى حين أن فقهاء المالكية يجيزون ذلك ، ومعظم الأراضى الأندلسية تزرع بالكراء . فكيف يسمح له بترويج مثل هذه الافكار التى تصادر منبعا مهما من منابع ثروتهم ومصدرا من مصادر سطوتهم الفقهية .

الوضع الاقتصادي والاجتماعي للظاهرية قبل عصر الموحدين:

يعتبر منذر بن سعيد البلوطى من أوائل الظاهرية في الأندلس الذى حظى بمكانة اجتماعية مرموقة فقد ولى قضاء ماردة والثغور الشرقية (٥٣)، ووضحت مكانته الاجتماعية من خلال حضوره حفل استقبال عبدالرحمن الناصر لسفراء قسطنطين السابع بقصر الزهراء سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م ، وقد عرف منذر كيف يفيد من كل

مناسبة كى يزداد رفعة وسلطانا عند الخليفة ، فأصبح أكبر شيوخ عصره بحكم أنه أصبح قاضى الجماعة ، وسلم الناس له بذلك بحكم مركزه الوظيفى (٥٤) ، ولا شك أن مكانته الاجتماعية هذه حققت له رخاء اقتصاديا وجعلته في مصاف الأثرياء ، وإن ظل دائما ينهى عن الإسراف ، حتى إنه لم يستطع أن يخفى اعتراضه على ما قام به الناصر من جعل سقف قبة قصره بالزهراء من الذهب ، فنقضه الناصر لتوه (٥٥) ، وهكذا لم يمنع المنذر منصبه الاجتماعى من توجيه النصح للخليفة بل والاعتراض على بعض أفعاله طالما خالفت تعاليم الإسلام وقيمه

أما ابن حزم فقد كان ذا مكانة اجتماعية مرموقة منذ صغره بحكم موقع أبيه كوزير للمنصور ابن أبى عامر ، وقد أفاد ابن حزم من ذلك حيث يقص علينا أنه دخل على الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر وهو في الثانية عشرة من عمره أى سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م (٥٦) ، ثم يحدثنا بعد ذلك عن دخوله على عدد من خلفاء وأمراء بنى أمية وجلوسه معهم مرارا منهم هشام المؤيد ، ومحمد المهدى ، وعبدالرحمن المرتضى (٥٧) ، وقد ساعده وضعه الاجتماعى على الدخول لمكتبة قصر الخلافة والإفادة منها مما كان له أثره في تكوينه العلمى والفكرى ، خاصة وأنها كانت تحتوى على العديد من الكتب الفريدة التى لم يكن لها وجود في الأندلس إلا فيها (٥٨) .

وبلغت الوجاهة الاجتماعية بابن حزم إلى الحد الذى أصبح فيه مستشارا لعبدالرحمن المرتضى ، ثم وزيرا لعبدالرحمن المستظهر (١٠٢٣/٤١٤) (٥٩) كما وزر لهشام المعتد بالله (٦٠) ويحدثنا ابن حزم في عام (٤٢٢هـ/١٠٣٠م) - وهو العام الذى سقطت فيه الخلافة الأموية بالأندلس - بأنه كان متوليا منصب القضاء (٦١)، وفى عهد ملوك الطوائف كان ابن حزم على صلة بأبى الأحوص معن بن محمد التجيبى (٤٣٣ هـ -٤٤٣ م / ١٠٤١ م - ١٠٥١ م) صاحب المرية والذى طلب من ابن حزم أن يصنف له رسالة في (الوعد والوعيد وبيان الحق في ذلك من السنة والقرآن) فصنفها له (٦٢) ، وهو ما يشير إلى وضع ابن حزم الاجتماعى المرموق في تلك الفترة من حياته إذ كان على اتصال بأحد حكام الأندلس في تلك الفترة . كما أنه كان أحد المستشارين والوزراء الذين اعتمد عليهم أحمد بن رشيق صاحب جزيرة ميورقة في الحكم (٦٣) ، وهكذا يتضح أن الوضع الطبقى لابن حزم كان وضعا أرستقراطيا شأنه شأن الطبقة الحاكمة .

وبخصوص وضعه الاقتصادى فليس أدل على الرخاء والنعيم الذى كان يتقلب فيهما ما أورده في كتابه الطوق من أنه أيام والده الوزير كان يمتلك مع أسرته دوراً في الجانب الشرقى من قرطبة في ربض الزاهرة ، ودوراً في الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث ، وكان يتنقل بين هذه وتلك حسب تنقلات والده الوزير ، وكانت هذه الدور تحتوى على المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة ، والجوارى والخدم ، والحدائق الغناء [٦٤] الأمر الذى يوضح بجلاء عظم الوضع الاقتصادى الذى كان يحيا فيه ابن حزم . كما يتضح الرخاء الاقتصادى لابن حزم أيضا من خلال امتلاكه لقرية بأكملها بما عليها من أراض ودور، هى قرية منت ليشم والتى كانت ملكا لأسرته من قبله [٦٥] ، وهى التى رحل إليها في آخر أيامه وبها توفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م.

وكان أبورافع الفضل بن على بن أحمد بن حزم وزيرا للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية (٤٦٢-٤٨٤هـ/١٠٦٩-١٠٩١م) ، وكان مقدما على وزرائه [٦٦] كما كان على صلة قوية بأمراء الدولة العبادية حتى أن أحدهم طلب منه أن يصنف كتابا عن تاريخ الأسرة ونسبها فصنف كتابه الموسوم بـ (الهادى إلى معرفة النسب العبادى)، ولاشك أن الفضل كان يتقلب في الرخاء الاقتصادى بحكم كونه وزيرا للمعتمد ، فضلا عن أملاك أبيه لا سيما قرية منت ليشم سالفة الذكر ، ومن الظاهرية الذين كانت لهم مكانة اجتماعية واقتصادية الراضى يزيد بن المعتمد على الله بن المعتضد ، ولاه أبوه الجزيرة الخضراء ، وكان معظما للمذهب الظاهرى وكتبه ، ولعله هو الذى طلب من الفضل أن يصنف له كتابا عن تاريخ الأسرة العبادية ونسبها ، خاصة بعد أن صار الراضى ظاهريا ، وأعاد لابن حزم اعتباره ، بعد أن كان جده المعتضد (٤٣٤-٤٦٢هـ/١٠٤٢-١٠٦٩م) قد أمر بإحراق كتبه ، وربما يقوى هذا الفرض إذا علمنا أن الراضى كان شغوفا بأنساب العرب [٦٧] .

وإلى جانب القضاة والوزراء والولاة كان من الظاهرية الواعظ في مسجد قرطبة مثل أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت[٦٨] ومنهم المقرىء والإمام في أحد المساجد مثل محمد بن شريح الرعينى (ت٤٧٦هـ/١٠٨٣م) تلميذ ابن حزم الذى صلى خلفه المعتضد صاحب إشبيلية في إحدى ليالى رمضان [٦٩] وفرج بن جديدة (ت٤٨٠هـ/١٠٨٧م) الذى أقعده المعتضد بن عباد للإقراء بإشبيلية بالمسجد المنسوب إلى والدته ، والمحدث والفقيه الذى كان يعلم الناس الفقه والحديث مثل عبدالله بن أحمد بن سعيد بن يربوع (ت ٥٢٢هـ/١١٢٨م) [٧٠] ومنهم من عمل بالتجارة مثل محمد بن عبدالله بن طالب البصرى ، ومنهم من كان عاقدا للشروط والوثائق مثل

هشام بن غالب بن هشام الغافقى (ت ٤٣٨هـــ/١٠٤٦م) [٧١] . تلــك لمحــة عــن الوضعية الاجتماعية والاقتصادية للظاهرية قبل الموحدين حاولنا قدر الاســتطاعة أن نبرز من خلالها الفئات الممثلة للظاهرية ، وإن جاءت بصورة فرديــة ومقتــضبة ، وذلك لندرة المادة العلمية المتاحة بين أيدينا.

الدولة الموحدية ومذهبها الظاهرى

تبدأ هذه الدولة على يد مؤسسها محمد بن تومرت الهرغى [٧٢] وقد ثــار حولــه جدل كثير من ناحية النسب هل هو بربرى ام عربى قرشى ام غيره . كمــا اختلــف المؤرخون بشانه هل هو صاحب سنة ام صاحب بدعة [٧٣] ، وأظن أن أفــضل مــن حقق هذا الأمر هو العلامة ابن خلدون عندما وصفه بانه عاد مــن المــشرق بحــرا متفجرا من العلم ، وشهابا واريا من الدين ، وأنه لــم تعــرف لــه بدعــة إلا بدعــة العصمة[٧٤]. أما ما روى عنه من روايات تشينه فاهل التحقيق ذكروا عدم صحتها عنه، وكيف لا وقد قبل أهل العلم كتبه وعملوا بما فيها ، وما كان فيها من خطا نبهوا عليه، وبخصوص أشعرية الرجل فلم تكن أشعرية خالصة بل اخذ من الاشعرية ما يتوافــق مع ظاهريته التى تبناها [٧٥] .

تولى أمرهذه الدولة بعد ابن تومرت عبدالمؤمن بن على ، ثم بعده يوسف ابنــه وكلاهما كان ظاهريا رفض كتب الفروع ودعا الناس إلى الظاهر من القرآن والسنة. ثم جاء البطل المغوار يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن المكنى بأبى يوسف والملقــب بالمنصور فأحيا المذهب الظاهرى وفرضه فرضا ، وجعل التعامل به فــى القــضاء والفتيا ، ثم سار على نهجه ابنه محمد الناصر ، ثم تتابع الخلفاء الواحد تلــو الآخــر سيرا على هذا النهج .

وإشكالية الحديث عن ظاهرية هذه الدولة إشكالية جد خطيرة لأمور منها :

أن جل من كتب عن الدولة الموحدية من القدامى والمحدثين هم مــن المالكيــة ، ومن ثم رأيناهم جميعا يلوون عنق النصوص ويذهبون بها كل مذهب لينفــوا حقيقــة ظاهرية الدولة ن وهو ما لم يفلحوا فيه رغم مصنفاتهم وتأصيلاتهم العديدة .

أن دولة بنى مرين وفقهاء المالكية فى عهدها ومن بعدها عدوا علــى مــصنفات أهل الظاهر فى عهد الموحدين فأبادوها ، وراحوا يسلبون الدولة من مذهبها الرســمى وهو الظاهرى بكلمات سرعان ما يتضح بطلانها من خلال نصوص كثيرة سنطرحها على حضراتكم فى هذه المقالة .

أن جل من كتب عن الدولة الموحدية فى العصر الحديث لم يكونوا من أرباب التواريخ ، ولم يطلعوا على كل ما بسطه أهل التاريخ عن هذه الدولة ، ومن ثم رأينا كل من كتب عن هذه الدولة يخلط الخلط العجيب فى مذهبها ، وصدق الحافظ ابن حجر عندما قال "من تحدث فى غير فنه اتى بالعجائب". فأحد من كتب عن الدولة يقول وتأثرت هذه الدولة بفقه ابن حزم فى أمور كثيرة ، ثم فى موضع آخر يقول ولم يكن لهذه الدولة تأثر بالمذهب الظاهرى إلا فى القليل النادر ، ولا يعنى هذا انها دولة ظاهرية ؟!! ومن أمثال هذا الكلام الكثير والكثير .

نأتى إلى الحقيقة التى لم يعدم الباحثون المنصفون من إثباتها وتأصيلها بالنصوص والادلة والبراهين ، ألا وهى ظاهرية الدولة الموحدية .

وقبل الشروع فى طرح الأدلة لتأكيد هذه الحقيقة دعونى أخبركم ياسادة ان الله أعاننى فأحصيت أكثر من عشرين دليلا وبرهانا على ظاهرية الدولة ، وهو الأمر الذى دعا أحد الباحثين النابهين والمتخصصين فى تاريخ المغرب والاندلس وهو أستاذنا الدكتور محمود اسماعيل عبدالرازق إلى أن قال لى يوما فى لقاء علمى بالجامعة " إن ما قمت به من كشف بشأن ظاهرية الموحدين سيهيل التراب على أكثر من خمسمائة سنة درج الباحثون فيها على القول بأن هذه الدولة دولة مالكية ... ولكن اكتب وحسبى انى أثق فيك وفى تأصيلك ".

وقال باحث آخر لا يقل نباهة ولا فهما ولا علما عن الأول وهو أستاذنا الدكتور أحمد رمضان أحمد [٧٦] -- رحمه الله - شيخ مؤرخى جامعة عين شمس " أنا متفق تماما مع ما ذهبت إليه من أن الدولة الموحدية دولة ظاهرية ، لكن حاول أن لا تنحى المذهب المالكى فى عصرها ..." .

أعود بكم إلى ما ذهبنا إليه من أدلة وبراهين تؤكد ظاهرية الموحدين ، وأكتفى ببضعة براهين أسوقها على حضراتكم فى الآتى :

أولا : انتشار كتب ابن حزم الفقهية والأدبية والتاريخية وغيرها [٧٧] ، وكتب الظاهرية عامة فى عصرهم بما لم يكن معرفا من قبل. كما أن حكام الدولة الموحدية كانوا على علم بالفقه والأصول والحديث والدعوة للاعتماد على القرآن والسنة فى الفتيا والأحكام ، وهى الأمور التى دعا إليها المذهب الظاهرى ، وغير موجودة فى غيره ، فعلى سبيل المثال كان عبدالمؤمن بن على فقيها أصوليا محدثا جدليا[٧٨] وكان يوسف بن عبدالمؤمن على علم بالفقه والأصول وعلوم القرآن ، والحديث ، وكان

يحفظ أحد الصحيحين (٧٩) ، وكان المنصور فقيها محدثا أصوليا مجتهدا جدليا ، يعلم الفقهاء والقضاة والكتاب استنباط الأحكام من القرآن والسنة (٨٠) .

ثانيا : اعتماد الدولة فى أحكامها على الفقه الظاهرى فقد قتل المنصور الموحدى أخا له لخروجه عليه ومطالبته بالخلافة (٨١) اعتمادا على فتوى لابن حزم بقتل الخليفة الآخر إذا بويع لخليفتين (٨٢) واعتمدت الدولة مسألة التعزير فى الذنوب التى لا حد فيها خاصة ترك الصلاة ، والقتل لمن شرب الخمر (٨٣) وجعل التعليم إجباريا على الذكور والبنات منذ عهد عبدالمؤمن بن على ، وتم تكليف العبيد بالأحكام الشرعية شأنهم شأن الأحرار (٨٤) والرجوع للحاكم فى أحكام القتل كقتل النفس والمرتد والمستهزىء بدين الله (٨٥) وهى المسائل التى انفرد المذهب الظاهرى بها دون غيره من المذاهب ، وأصلها الظاهرية فى كتبهم .

ثالثا : دعوة حكام الموحدين لعقد مجادلات ومحاورات لترجيح المذهب الظاهرى على المالكى ، ومن ذلك المجلس الذى ذكره ابن حجر الهيتمى لأحد الأمراء دون ذكر اسمه (٨٦) ، وما وقع فى عهد عبدالمؤمن بن على من جمع علماء الظاهرية والمالكية للمناظرة حول عدة مسائل فى مدونة سحنون ، ومنها مسألة إعادة الصلاة فى الوقت والتى يرفضها الظاهرية ، وانتهى المجلس بإقرار رأى الظاهرية بعد كلام دار بين ابن زرقون المالكى وأحد الظاهرية ، وقد عبر ابن زرقون عن ظاهرية عبدالمؤمن بقوله : " كل ذلك مراده أن يحمل الناس على مذهب ابن حزم" (٨٧) .

ولنصغ إلى ابن زرقون الذى شهد واقعة جمع عبدالمؤمن بن على للفقهاء وذلك لحمل الناس على المذهب الظاهرى فيحدثنا بقوله " كنت فيمن جمعهم – أى عبدالمؤمن– فقام على رأسه كاتبه ووزيره أبوجعفر ابن عطية فخطب خطبة مختصرة، ثم رد رأسه إلى الفقهاء ، وقال لهم : بلغ سيدنا أن قوما من أولى العلم ، تركوا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وصاروا يحكمون بين الناس ، ويفتون بهذه الفروع والمسائل التى لا أصل لها فى الشرع ، وقد أمر أن من فعل ذلك بعد هذا اليوم ، ونظر فى شىء من الفروع والمسائل ، عوقب العقاب الشديد ، وفعل به كذا وكذا وسكت ، ورفع الأمير عبدالمؤمن رأسه إليه وأشار عليه بالجلوس فجلس، وقال : سمعتم ما قال ؟ قال له الطلبة نعم. قال : وسمعنا أن عند القوم تأليفا من هذه الفروع يسمونه الكتاب – يعنى المدونة– وأنهم إذا قال لهم قائل مسألة من السنة ولم تكن فيه ، أو مخالفة له قالوا : ما هذا فى الكتاب أو ما هو مذهب الكتاب وليس ثمة كتاب يرجع إليه إلا كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال :وأرعد

وأبرق فى التخويف والتحذير من النظر فى هذه الكتب ، والفقهاء سكوت . ثم قال : ومن العجيب أنهم يقولون أقوالا برأيهم وليست من الشرع ، فيقولون من طرأ عليه خلل فى صلاته يعيد فى الوقت ويتحكمون فى دين الله تعالى ، لأنها إما صحيحة فلا إعادة ، وإما باطلة فيعيد أبدا ، فيا ليت شعرى من أين أخذوه فصمت القوم ولم يجبه أحد ، لحدة الأمر والإنكار... ، ثم قام ابن زرقون وحاول أن يجيب عبدالمؤمن ويحل له الإشكال إلى أن قال " يا سيدى جميع ما فى الكتاب – يعنى المدونة– مبنى على الكتاب والسنة ، وأقوال السلف والإجماع ، وإنما اختصره الفقهاء تقريبا لمن ينظر فيه من المتعلمين والطالبين ، فانطلقت ألسنة الفقهاء الحاضرين حينئذ ووافقونى على ما قلت – أى ابن زرقون– قال ابن زرقون ثم دعا – أى عبدالمؤمن– فقال : اللهم وفقنا يا رب العالمين ، وقام إلى منزله... " [٨٨] .

والمدقق فى كلام ابن حزم وكلام عبدالمؤمن السابق يتضح له أن الأخير كان يتكلم بلسان ابن حزم ، وما كان هدفه من طرح هذه المسألة بالذات إلا إظهار فساد المذهب الفروعى وحمل الناس على الظاهر خاصة وأن هذه المسألة طرحها سحنون فى المدونة بدون حجج ولا براهين وجعل عنوانها " باب ما تعاد منه الصلاة فى الوقت" [٨٩] .

أضف إلى ذلك أن سكوت عبدالمؤمن فى نهاية الجلسة وقيامه إلى منزله ليس معناه أنه أقر فقهاء المالكية على قولهم بخصوص المدونة ، بل لأنه ما قبل منهم الكلام ، ومن ثم لما وجد اتفاقهم على قول ابن زرقون وإصرارهم على المذهب المالكى تراجع عن حملهم على المذهب الظاهرى خشية الثورة عليه ، إذ كان يعلم مكانتهم فى نفوس أهل المغرب [٩٠] ، لكن ظل هو ومن حوله متمسكين بالمذهب الظاهرى إلى أن تأتى فرصة فرضه والعمل به ، وقد أكد المراكشى ذلك بقوله عند حديثه عن المنصور " وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا – يعنى المنصور– " [٩١] ، ومن هذه المحاورات ما وقع بين يوسف بن عبدالمؤمن ، وأبى بكر بن الجد المالكى حول كتاب ابن يونس المالكى ، وما فيه من أقوال متعددة وآراء مختلفة ، وانتهى الأمر إلى قول يوسف لا بن الجد ليس إلا المصحف وسنن أبى داوود(إشارة إلى كتب الحديث) [٩٢] .

رابعا : اعتماد الدولة فى القضاء والفتيا والأحكام على القرآن والسنة والإجماع ، وهى الأصول التى اعتمدها المذهب الظاهرى ، وقد كتب حكام الدولة الرسائل للقضاة والعمال بخصوص هذا الشأن ومن ذلك رسالة المأمون للفقيه أبى محمد عند توليته قضاء شريش ، ورسالة الرشيد لأبى محمد القاضى بشريش ، وأخرى لقاض أمره أيضا بالاعتماد على القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد ، ولقد سبق المأمون والرشيد فى هذا الأمر يوسف بن عبدالمؤمن ، أضف إلى ذلك ما أعلنه المرتضى فى رسالة لأهل سبتة جاء فيها (وما تعبدنا ربنا – جلا وعلا– إلا بالظاهر) (٩٣) وهو القول الذى طالما كرره ابن حزم والظاهرية مرارا فى كتبهم ، وهذا القول يوضح أن الدولة ظلت حتى النهاية متبنية للمذهب الظاهرى ، إذ إن المرتضى كان الحاكم قبل الأخير فى تاريخ الدولة ، أضف إلى ذلك ما قام به المنصور الموحدى من أمر جماعة من العلماء المحدثين بجمع مجموعة من الأحاديث من كتب السنة ، وأخذ الناس على حفظها حتى حفظها العوام ، وكان يجعل لمن يحفظ ذلك جعلا من الكساء والأموال ، ونال عنده طلبة الحديث حظوة كبيرة ، وكان لهم ملجا وملاذا (٩٤) .

خامسا : اتخاذ الدولة قضاة ظاهرى المذهب كأحمد بن يزيد بن عبدالرحمن بن بقى بن مخلد الذى تولى قضاء مراكش ، ثم قرطبة وكانت أحكامه على المذهب الظاهرى ، وابن مضاء ، وابن دحية الكلبى ، وغيرهم كثير ، وبلغ من حرص المنصور على نشر المذهب الظاهرى أن اتخذ لبنيه مؤدبا ظاهريا وهو أبا سليمان بن حوط الله الغرناطى الذى كان قد تولى قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبته وسلا وميورقة ، وذلك لينشئهم على أصول المذهب (٩٥) .

وقد أثمرت سياسة المنصور هذه إذ إن ابنه الناصر لما فتح ميورقة واستردها من بنى غانية المالكية حرص على أن يولى عليها قاضيا ظاهريا وهو ابن حوط الله ليحافظ على المذهب الظاهرى بالجزيرة ويعيده إلى سابق عهده كما كان أيام ابن حزم(٩٦) ، بل إن القضاة أنفسهم كانوا إذا استنابوا عنهم أحدا فى الأحكام يختارونه من الظاهرية مثل أبى الحسن على بن عبدالله بن يوسف بن خطاب المعافرى قاضى إشبيلية (ت٦٢٩هـ/١٢٣١م) والذى استنابه القضاة كثيرا فى الأحكام (٩٧) ، وقد أكد صاحب بيوتات فاس سياسة الدولة الموحدية بتولية قضاة لا يحكمون إلا بالظاهرية فى قوله " ولما قلدوا القضاء بالمغرب إلى قاضى القضاة عبدالله بن طاهر الصقلى الحسينى أمروه أن يأمر القضاة بالمغرب أن يحكموا بمحصل الظاهرية ، فامتثلوا

أمره ، وصاروا لا يحكمون إلا بمحض الظاهرية، وجروا على ذلك السنن بطول أيامهم" (٩٨) .

سادسا : أن ابن تومرت مزج دعوته بالمذهب الظاهرى فى الجانب الفقهى ليحارب به المرابطين كما حارب به ابن حزم المالكية (٩٩) حيث ذهب ابن تومرت إلى قرطبة وهناك تشبع بتعاليم ابن حزم (١٠٠) ومنها أن الشريعة لا تثبت بالعقل وأن أصولها تنحصر فى القرآن والسنة ، ولم يعتبر القياس والإجماع الذى لا نص يؤيده من تلك الأصول بل عمد إلى حجج القائلين بالقياس وأبطلها ، واهتم بدراسة الأصول دون الفروع وأبطل الاعتماد على الشك والظن والتقليد ودعا إلى التأصيل الشرعى للأحكام من نصوص القرآن والسنة ، كما دعا إلى الجهاد ضد القوى التى عملت على نشر المنكر ، وقاوم المنكرات بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(١٠١) .

بل إن المطلع على كتاب المهدى محمد بن تومرت سرعان ما يتضح له أثر الفكر الظاهرى عليه ، إذ أنه عبارة عن دعوة للعودة إلى الكتاب والسنة ، حيث بوب كتابه وأفتى فى كل مسألة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية (١٠٢) ، بل إن ابن تومرت خطا خطوة أكدت ظاهريته حينما أمر بقطع كتب الفروع الفقهية وحرقها على قول شارح كتاب أعز ما يطلب (١٠٣) وهو ما أكده ابن الخطيب حينما قال إن ابن تومرت كان ينكر كتب الرأى والتقليد (١٠٤) وكذا أثبت الونشريسى ظاهريته (١٠٥) ، بل إن صاحب بيوتات فاس كان أكثر جرأة وصراحة حينما صرح بظاهرية دولة الموحدين من أول ظهورها حتى انتهائها حينما قال "إن ملوك الموحدين تحلوا بالمذهب المعروف لهم ، تابعين للمهدى رئيسهم الأول القائل .. بإنكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل شرعا على محض الظاهرية ... وجروا على ذلك السنن بطول أيامهم إلى أن انقرضوا ، أولهم فى ذلك مهديهم أول ملوكهم ..."(١٠٦) وهذا القول أكده صاحب كتاب الإعلام (١٠٧) ، وباستقراء تاريخ الدولة الموحدية نجد أن كل من عبد المؤمن بن على(١٠٨) والمنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن (١٠٩) والناصر بن المنصور (١١٠) قد تابعوا ابن تومرت فى تقطيع كتب الفروع وإحراقها وتنفير الناس منها وحمل الناس على محض الظاهرية.

سابعا : كثرة الظاهرية فى عهد الموحدين حتى شكلوا تجمعا ضد المالكية ، وهو الأمر الذى لم يحدث من قبل ومنهم على سبيل المثال لا الحصر محمد بن عبدالله بن مروان التلمسانى قاضى الجماعة فى عهد المنصور الموحدى وابنه محمد الناصر ٥٩٥هـ-٦١١هـ/١١٩٩م-١٢١٤م الذى عرف بتعصبه لابن حزم ، وإبراهيم بن

يعقوب المنصور الموحدى الذى ولى على إشبيلية مرتين ووزر لأخيه محمد الناصر، وكان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية ، وعلـــي بـــن عبـــدالله بـــن يوســـف قاضـــي إشبيلية [١١١] ، وعبدالمنعم بن محمد بن عبدالرحيم الخزرجـــي الـــذى تـــولى قـــضاء غرناطة وجزيرة شقر ومدينة وادى آش وجيان ، ثم تولى الحسبة والشرطة فى عهـــد المنصور الموحدي [١١٢] .

ومن الظاهرية أبو بكر محمد بن علي بن العربي الصوفي الظـــاهري صـــاحب الفتوحات المكية المشهور بمحيي الدين بن عربي والشيخ الأكبر وبابن أفلاطون وقد أصطلح أهل المشرق علي ذكره بغير ألف ولام تمييزا له عن القاضي أبي بكـــر بـــن العربي المالكي خصم الظاهرية . سمع كتب ابن حزم من شيخه عبد الحق الإشبيلى ، واهتم بنشرها والتعليق عليها ، وأثر عنه رؤيا حدث عنها بقوله : " رأيت النبي صلي الله عليه وسلم في المنام وقد عانقه أبو محمد بـــن حـــزم المحـــدث فغـــاب الواحـــد في الأخر فلم نر إلا واحدا ، وهو رسول الله عليـــة الـــصلاة والـــسلام فهـــذه غايـــة الوصلة" [١١٣] ، وهذه الرؤيا تشير إلي أن المعتنق لفكر ابن حزم معتنقا لفكـــر النبـــي صلي الله عليه وسلم . بيد أن ظاهرية ابن العربي لم تكن كظاهرية ابن حزم فـــالأول قصرها علي العبادات وسلك في الاعتقادات مسلك المتـــصوفة أصـــحاب البـــاطن ، والثاني طبق ظاهريتة علي العبادات والاعتقادات في آن واحد، وهذا شأن غريب من ظاهري يعد رأس أهل الباطن من الصوفية [١١٤] .

ومن الظاهرية في عهد الموحدين أحمد بن الرحمن بن محمد بن مضاء القرطبي قاضي القضاة بدولتهم وصاحب كتاب الرد علي النحاة، والمشرق في النحو، وتنزيـــه القرآن عما لا يليق بالبيان ، وقد صنفهم لتأصيل مذهب جديد في النحو يعارض فيـــه النحو المشرقي الغارق في التأويل بناء علي منهج ظاهري يقوم علي إلغـــاء القيـــاس والتعليل وإلغاء نظريات وعلل كثيرة في النحو[١١٥] ، وعبدالكريم بن عبـــدالملك بـــن عبدالله البجائى (من أهل القرن السابع الهجرى) كـــان معروفـــا عنـــد خلفـــاء بنـــي عبدالمؤمن ، وإليه كان مرجع الفتيا وعلى قوله العمل [١١٦] .

ثامنا : معاقبة حكامها بالحبس لمن يتعرض بالنقد الهدام لابن حـــزم ومذهبـــه ، ومن يدعو إلى التقليد وكتب الفروع وذلك مثل ما حدث لمحمد بن سعيد بـــن أحمـــد الأنصارى المعروف بابن زرقون بسبب تعصبه للمذهب المالكى وانتقاده لابن حـــزم انتقاصا لقدره وليس تقويما فى كتابه (المعلى فى الرد على المحلى والمجلـــى لابـــن حزم) ، وتدريسه لكتب الفروع وقد نهى عنها المنصور [١١٧] ، والقاضى أبوبكر بن

العربى المالكى الذى انتقد ابن حزم فى رسالة له أسماها (الغرة) انتقد فيهـا كتـاب (الدرة فى الاعتقاد) لابن حزم [١١٨] ، وأبوبكر الجيانى (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م) الـذى سجنه المنصور بسبب دعوته للتقليد [١١٩] وأبوبكر محمد بن على بن خلـف التجيبـى الإشبيلى (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) الذى وشى به للمنصور ايـام ألـزم النـاس بـالأثر والظاهر فسجن مع ابن زرقون وعرض للقتل لكنه خلص من النكبة فلزم داره حتـى مات[١٢٠] .

وكانت لهذه السياسة آثار بعيدة فى زيادة الظاهريين والمهتمين بالفكر الحزمـى وهو ما يقرره ابن العربى المالكى الذى وصف كثرة الظاهريـة فـى صـدر دولـة الموحدين بقوله " وجدت القول بالظاهر قد ملأ المغرب " [١٢١] وأكد ذلك كل من عقيل بن عطية القضاعى ، والمراكشى صاحب (المعجب) حيث يقول القضاعى عن الطائفة الكبيرة التى اتبعت ابن حزم فى عصر الموحدين : " تعظمه تعظيما مفرطـا بحيـث تقلده فى جميع أقواله ، ولا ترى مخالفته فى شىء من مذهبه وإذا ظهر لها فى كلامه الخطأ البين والوهم الصراح لم تقبله ، وأحالت بالوهم والخطأ على من يتعاطى الـرد عليه أو على نفسها بالعجز عن الانتصار لـذلك القـول المـردود " [١٢٢] ، ويقـول المراكشى فى حدود سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م فى ختام ترجمته لابـن حـزم : " وإنمـا أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل ، وإن كانت قاطعة للنسق مزيجة عن بعـض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكرا فى مجالس الرؤساء ، وعلـى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالـك بـالمغرب ، واسـتبداده بعلـم الظـاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد فيما علمت ، وقد كثر مذهبه وأتباعه عنـدنا بالأنـدلس اليوم) [١٢٣] ، ومن كلام المراكشى يتضح أن المذهب الظاهرى ظل مـذهبا رسـميا للدولة الموحدية حتى سقوطها ، إذ إن كلامه كان بعد وفاة المنصور الموحدى بـأكثر من ربع قرن ، وفى ذلك رد على من ادعى أن الدولة تبنت المذهب الظـاهرى فـى عهد المنصور فقط ثم سرعان ما زال المذهب بزواله [١٢٤] .

تاسعا : أن مشايخ الموحدين قدموا المنصور بن يوسف للخلافة ، رغم معرفتهم أنه ظاهرى ، وكان مشهورا بظاهريته أيام كونه وزيرا فى عهد أبيه [١٢٥] ، ولو كان لهؤلاء المشايخ نهجا مذهبيا غير المذهب الظاهرى لما قدموا المنصور ، ولعارضـوا من قدمه أصلا ، كما كان الحال فى عهد المـرابطين المالكيـة الـذين اعتبـروا أن مذهب الظاهرية بدعة ، ورفضوا تولية أى ظاهرى منصب من المناصب الهامة فـى الدولة [١٢٦] ، كما أن محمد الناصـر بـن المنـصور اسـتوزرأخاه إبـراهيم بـن

المنصور الذى كان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية على حد قول المراكشى، وقد ظل إبراهيم فى الوزارة حتى عام ٦٠٥هـ/١٢٠٨م ثم ولاه الناصر على إشبيلية[١٢٧] ، وهذا الذى فعله الناصر يؤكد خطأ ما ذهب إليه البعض من أن الدولة كانت ظاهرية فقط فى عهد المنصور ، ويبطله أيضا قول صاحب بيوتات فاس بان الناصر كان كأبيه لا يحكم إلا بمحض الظاهرية ، وأن دولة الموحدين كلها من بدايتها إلى نهايتها كانت دولة ظاهرية كما أسلفنا[١٢٨] ، ولو كانت الدولة غير ظاهرية لما سكت شيوخ الموحدين عن هذا التمكين للظاهرية ورجالها .

أضف إلى ذلك حرص حكام الموحدين للدفاع عن ابن حزم والمذهب الظاهرى وتشجيع علماء الظاهرية للرد على منتقدى ابن حزم والمذهب الظاهرى مثل أحمد بن محمد بن حزم المذحجى الذى صنف كتابا أسماه (الزوابغ والدوامغ) انتقد فيه أبا بكر بن العربى المالكى فى كتابه الذى رد فيه على ابن حزم والموسوم باسم (الدواهى والنواهى فى الرد على ابن حزم) ، وقد أتى أحمد بن محمد بن حزم على كل شبهة روج لها ابن العربى ، وأبطل كل مقولة رددها فى كتابه هذا [١٢٩] ، هذا فضلا عن حرصهم على العناية والاهتمام البالغ بفقهاء الظاهرية مثل الحافظ إبراهيم بن خلف السنهورى الدمشقى (ت٦٢٠هـ/١٢٢٣م) الذى دخل الأندلس والمغرب فالتف حوله جماعة من الظاهرية درسوا على يديه ورووا عنه مثل ابن حوط الله الظاهرى ، وابنه محمد ، وأبوالعباس النباتى الظاهرى ، وابن القطان الفاسى المالكى صاحب النزعة الظاهرية ، وولد ابن القطان ، وليس أدل على عناية الموحدين بالسنهورى أنه لما وقع فى أسر النصارى خلصه محمد الناصر بن المنصور وأحسن إليه ، أضف إلى ذلك حرص حكام وولاة الموحدين على تقريب علماء الظاهرية وأئمتها منهم مثل المنتصر بالله حاكم بجاية الذى استحسن جهود ابن سيد الناس اليعمرى الظاهرى (ت ٦٥٩هـ/١٢٦٠م) وآثاره للتمكين للمذهب الظاهرى ببجاية فقرب منزله وأجزل عطيته وجائزته ، وكان من أخص الحاضرين بمجلسه [١٣٠] .

عاشرا : أن المعاصرين للأحداث من المؤرخين والفقهاء ومن جاء بعدهم أقروا بأن الدولة الموحدية كانت دولة ظاهرية تحتكم للفقه الظاهرى ، وقد أسلفنا قول القضاعى المالكى ، وقول المراكشى عن ابن حزم وكثرة أتباعه فى عهد الموحدين ، وكثرة ذكره على ألسنة العلماء والحكام مما هو غنى عن إعادته .

وللمراكشى شهادة أخرى توضح ظاهرية الدولة الموحدية قال فيها عن المنصور الموحدى " وفى أيامه انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب

بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله والقرآن... وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شيء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ... وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا – يعنى المنصور– " [١٣١] ، فهذه شهادة مؤرخ معاصر للأحداث يؤكد على أن هدف كل من عبدالمؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور هو حمل الناس على المذهب الظاهرى ، ويؤكد ذلك شهادة ابن زرقون المالكى التى أسلفنا ذكرها بأن عبدالمؤمن بن على كان هدفه من المناظرات بين الظاهرية والمالكية حمل الناس على الظاهر ؛ وشهادة ابن حمويه السرخسي الدمشقي (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م) الذى رحل إلى المغرب وأقام بمراكش عند المنصور الموحدى وأخبر بأن الفقهاء كانوا ينسبون المنصور إلى مذهب الظاهر[١٣٢] .

وهذا صاحب بيوتات فاس المتوفى فى العصر المرينى يقول " إن ملوك الموحدين تحلوا بالمذهب المعروف لهم ، تابعين للمهدى رئيسهم الأول القائل باعتقاده الفاسد بإنكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل على محض الظاهرية ... وجروا على ذلك السنن بطول أيامهم" [١٣٣] ، وقد وافقه على ذلك صاحب كتاب الإعلام [١٣٤] ، وفى موضع آخر نرى صاحب بيوتات فاس يؤكد على ظاهرية الدولة الموحدية من بدايتها إلى نهايتها فى الحكم والقضاء وخلافه بقوله " ولما ولى يعقوب المرينى المذكور وطلب منه أهل المغرب الرجوع فى القضاء إلى مذهب مالك عن طيب أنفسهم ، أمر قضاة المغرب بذلك وترك مذهب الظاهرية " [١٣٥] ، وهذا النص واضح وجلى على استمرار ظاهرية الدولة حتى عصر يعقوب المرينى الذى حكم من سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حتى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م.

وممن أكد على ظاهرية المنصور والدولة الموحدية ابن جزى الغرناطى (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) حيث قال " المنصور أبويوسف يعقوب ، كان عالما محدثا ألف كتاب الترغيب فى الصلاة ،وحمل الناس على الظاهرية ، وأحرق كتب المالكية" [١٣٦]، والحافظ الذهبى (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) الذى قال عن المنصور " ألزم الناس باخذ الفقه من الكتاب والسنن على طريقة أهل الظاهر ، فنشا الطلبة على هذا بالمغرب بعد سنة ثمانين وخمسمائة"[١٣٧] والشاطبى المالكى (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) الذى قال عن مذهب ابن تومرت " وكان مذهبه البدعة الظاهرية" [١٣٨] وفى موضع آخر ينسب الموحدين للظاهرية المحضة بقوله " فمزقوا

كتب المالكية وسموها كتب الرأى ، ونكلوا بجملة من الفضلاء بسبب أخذهم فى الشريعة بمذهب مالك ، وكانوا مرتكبين للظاهرية المحضة ... وثبتت زمانا طويلا ، ثم ذهب منها جملة ، وبقيت أخرى منها إلى اليوم " [١٣٩] . وذهب النباهى المالقى الأندلسى إلى ظاهرية المنصور الموحدى ودولته أيضا[١٤٠] ، وكذلك وصف ابن فرحون المالكى (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) دولة بنى عبدالمؤمن بالظاهرية كما سبق[١٤١]، وقد سبق ذكر كلام البرزالى عن ظاهرية الموحدين ، وكذا وصف الونشريسى (٩١٤هـ/١٥٠٨م) ابن تومرت بالظاهرى فقال " ومنها ما أحدثه المهدى الظاهرى محمد بن تومرت " [١٤٢] ، وذهب ابن العماد الحنبلى إلى ظاهرية الموحدين[١٤٣] ، ومثله ابن رأس العسكرى (ت ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م) ، والشيخ عليش المالكى (ت ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م) كما سبق ، وابن خضراء السلاوى [١٤٤] .

وقد ذهب إلى هذا الرأى – ظاهرية ابن تومرت والموحدين – جماعة من الباحثين المحدثين منهم الأسبانى آنخل جونثالث بالنثيا[١٤٥] ، ومحمد المنونى المغربى[١٤٦] ، ومحمد عبدالله عنان [١٤٧] ، والحجوى الثعالبى الفاسى ([١٤٨]) ، وعبدالحفيظ الفاسى ، ومحمد زاهد الكوثرى ، وسعيد الأفغانى ، وسعيد أعراب ، والدكتور إحسان عباس ، والدكتور شوقى ضيف ، وفؤاد سزكين ، وبطرس البستانى، والدكتور عباس الجراوى ، وأحمد أمين [١٤٩] ، ومراجع عقيلة الغناى [١٥٠] ، والإمام محمد أبوزهرة [١٥١] ، وابن عقيل الظاهرى [١٥٢] ، والدكتور زكريا إبراهيم [١٥٣] ، والدكتور فاروق عبدالمعطى [١٥٤] ، والدكتور محمد إبراهيم الفيومى [١٥٥] ، والدكتور حسان محمد حسان [١٥٦] ، والعلامة محمد بن الأمين بوخبزة الحسنى التطوانى الظاهري ، والدكتور توفيق الغلبزورى [١٥٧] والباحث النابه فى تراث ابن حزم سمير قدورى [١٥٨]، وغيرهم كثير مما لم نقف عليهم ، ولا شك أن العرض السابق يوضح خطأ بعض الباحثين فيما ذهب إليه من عدم تأثر الموحدين بالفقه الظاهري الحزمى[١٥٩] .

أكتفى بهذا القدر وأعدكم بأن آتيكم بما هو أجلى وأوضح مما طرحته عليكم ، خاصة وأنا بصدد نشر أطروحة الدكتوراة ، فضلا عن إعداد كتاب عن المذهب الظاهرى تحت مسمى " دراسات فى المذهب الظاهرى " ضمنته فصلا عن ظاهرية الموحدين .

دوافع اختيار الموحدين للمذهب الظاهرى مذهبا رسميا .

اتخذ حكام الموحدين من المذهب الظاهري مذهباً رسمياً لهم خاصة فى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور الذى عمم العمل بالمذهب فى الفتيا والقضاء وغيرهما بالمغرب والأندلس، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة منها :

أولا : أن الفتاوى الشرعية التى تصدرعن فقهاء الأندلس لا تعتمد على القرآن والسنة مباشرة، وإنما على مذهب مالك، حتى أن المصدر الإلهي قد تنوسى تماماً[١٦٠].

ثانيا : الإعجاب الذى كان يكنه المهدى محمد بن تومرت مؤسس الدولة. لابن حزم وتأثره به فى عدة مسائل تعتبر قوام مذهبه الدينى، مثل قوله بأن الشريعة لا تثبت بالعقل، وانحصار أصولها فى القرآن والسنة وغيرها[١٦١] وتابعه فى ذلك كل من عبدالمؤمن بن على، ويوسف ابنه، وحفيده المنصور بل وباقى الحكام[١٦٢] .

ثالثا : الخلافات فى كتب الفروع حول المسألة الواحدة، والتى أدت إلى ضياع الحق وإجهاد الناس، خاصة المقلدين فى التعرف على أوجه الصواب من دينهم ؛ مما كان له أثر كبير فى تمسك هذه الدولة بالمذهب الظاهري.

رابعا : انتشار مذهب المجسمة الذى يفسر الآيات القرآنية التى بها تشبيه للذات الإلهية تفسيراً حرفياً[١٦٣] .

خامسا : عواطف المالكية الجياشة على انقراض الدول المرابطية صاحبة الانتصار الأكبر على النصارى فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، والتى ضمنت بقاء المسلمين بالأندلس نحو أربعة قرون تالية، وكان ذلك أحد الأسباب التى دفعت مؤسس الدولة الموحدية إلى تغيير المذهب المالكي التى اعتنقته الدولة المرابطية إلى المذهب الظاهري أكثر المذاهب معارضة له[١٦٤] .

سادسا : أن ابن تومرت لم ينس ما تعرض له فى مراكش على يد فقهاء المالكية فى عهد على بن يوسف ، ووشايتهم به لديه حتى أمر بقتله ، لولا خروجه إلى تينملل، كان هذا فى الوقت الذى لقى فيه ابن تومرت تأييد جماعة من الظاهرية وافقوه على دعوته ، خاصة ما كان من فقهاء فاس كما سبق ، فضلا عن أن ابن تومرت أخذ على عاتقه نشر التوحيد الكلامى القائم على التأويل ، وهو ما وجد معارضة شديدة من فقهاء المالكية ، فى حين كان ابن حزم وهو أحد أقطاب الظاهرية ومجدد المذهب ، يدعو إلى التوحيد الكلامى ، وله أقوال حول الآيات المتشابهة بسطها فى كتابه الفصل[١٦٥] ، بل له كتابٌ مفصلٌ فى علم الكلام أسماه (علم الكلام على مذهب أهل

السنة والجماعة) ، الأمر الذى دفع ابن تومرت إلى تبنى المذهب الظاهرى تأييدا لجهوده فى نشر علم الكلام ، أضف إلى ذلك أن ابن تومرت تلقى أصول المذهب الظاهرى في قرطبة . كما درس المذهب على يد الطرطوشى أحد المهتمين بالفقه الظاهرى وكتب ابن حزم[١٦٦] ، فوجد في المذهب أمورا تتوافق مع عقليته وتفكيره مثل الثورة على الحاكم الجائر ، ورفض القياس والظن في الأحكام فاعتمده في الفقه وفى بعض أمور العقيدة ، وآخر هذه الأسباب تربية المنصور بن يوسف تربية ظاهرية ، حتى إنه نشأ فوجد اباه قد قلد ظاهريا القضاء وهو أحمد بن مضاء، ثم جعله قاضى قضاة[١٦٧] ، فضلا عن إبداء يوسف وأبيه عبدالمؤمن إعجابهما بالذهب الظاهرى ورغبتهما فى نشره والقضاء على كتب الفروع ، الأمر الذى دفع المنصور إلى هذا المذهب دفعا ، ولذا فلا غرو أن يقول عن مجدد المذهب ابن حزم قولته الشهيرة لما مر على قبره : " عجبا لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم " ثم قال : " حقا كل العلماء عيال على ابن حزم"[١٦٨] .

* *

هوامش البحث

(١) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، تأويل مختلف الحديث ، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، دار الكتب الإسلامية ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٤٤ ، وداود بن على الظاهرى ولد سنة ٢٠١هـ/٨١٦م ، وكان يحضر مجلسه أكثر من أربعمائة فقيه يلبسون الطيلسان ، توفى سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م أنظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٦٣.

(٢) محمد أبوزهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربى، القاهرة، (د.ت)، ص٥٣١ .

(٣) عباس محمود العقاد ، التفكير ضرورة إسلامية ، نهضة مصر ، ١٩٩٨م ، ص١٠٨ .

(٤) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ١/ ٣٧٨ ، ٣٧٩ . وعن عبدالله بن قاسم أنظر نفس المصدر، ١/ ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٥) عبدالله بن الحسن النباهى ، تاريخ قضاء الأندلس ، نشر ليفى بروفنسال ، دار الكاتب المصرى، ١٩٤٨م ، ص٧٤ ، ٧٥ ؛ وانظر Miguel Asin Placios , Aben Hazam De Cordoba , Madrid , ١٩٢٧ , T.١ , P.١٣٢ – ١٣٤ ، ومنذر بن سعيد هو قاضى القضاة فى عهد كل من عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر ، ولد سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م ، وتوفى سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م لمزيد من التفاصيل . أنظر: النباهى ، مصدر سابق ، ص٧٤،٧٥.

(٦) ابن بشكوال ، الصلة ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب المصرى واللبناني، القاهرة - بيروت، ط١١ ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩، ١/ ٢٩١ ، ٢/ ٦٧٤ ، ٣/ ٨٦٦ ، ٨٩١ ، ٩٣٧ ؛ وانظر الضبى ، بغية الملتمس ، ص٣٠٥ .

(٧) عبدالباقى السيد، ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى، رسالة ماجستير ، آداب عين شمس، ٢٠٠٤م ، ص٧٤-٨٠.

(٨) ابن حزم ، النبذة الكافية فى أصول أحكام الدين ، تحقيق محمد سعيد البدرى ، دار الكتاب المصرى واللبنانى ، القاهرة - بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م ، ص٤٧-٤٩ .

(٩) أنظر : جامع بيان العلم ، دار الكتب الإسلامية، ط٢،١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٥٣٣-٥٣٥ .

(١٠) ابن وضاح حفيد لأحد موالى عبدالرحمن الداخل ولد سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م رحل للمشرق وسمع من شيوخ الحديث ثم عاد إلى الأندلس لبث ما حصله من أحاديث توفى سنة ٢٧٢هـ/٩٠٠م عنه أنظر ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ١/١٧١ ، وقاسم بن أصبغ أحد المحدثين بالأندلس من كتبه مصنف فى الحديث ، وكتاب المجتبى فى الفقه ، وكتاب أحكام القرآن ، توفى سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م أنظر ابن حزم ، رسالة فى فضل الأندلس ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢،١٩٨٣/١٧٩.

(١١) النباهى ، تاريخ قضاء الأندلس ، ص٧٤ ، ٧٥ ؛ وانظر Miguel Asin Placios , Aben Hazam De Cordoba , Madrid , ١٩٢٧ , T.١ , P.١٣٢ – ١٣٤

(١٢) أنظر: رسالتان لابن حزم أجاب فيهما عن رسالتين ؛ ص ١١٥، ١١٦؛ وانظر: بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهــرة ،١٩٥٥م ، ص٢١٥.

(١٣) انظر: رسائل ابن حزم ،٣/٧٣-١٢٨.

(١٤) نقلا عن الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعــيم العرقــسوسى ، مؤسسة الرسالة، ط١١ ، ١٤١٩هـــ/١٩٩٨م ،١٨/١٩٩. وابن العريف هو أحمد بن محمد من قبيلة صنهاجة ولد بالمرية سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م و كان أحد أقطاب الصوفية فــي الأنــدلس . انظر: الضبي ، بغية الملتمس ، دار الكتاب العربى ،١٩٦٧م ، ص١٦٦.

(١٥) انظر: رسالة في الرد على الهاتف ، ص١٢٦.وعن محمد بن سعيد الميــورقي انظــر: ابــن الأبار، التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق إبراهــيم الإبيارى ، دار الكتاب المــصرى واللبنــانى ، القاهــرة بيروت ، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩ م ، رقم ٤٤٣. وابن البارية لم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر.

(١٦) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهــير والأعلام ، دار الغد العربــى ، القاهـــرة ، ط١، ١٩٩٦م ،١١/٤٤٤،٤٤٦؛ سير أعلام النبلاء ، تحقيق شــعيب الأرنــاؤوط ، ومحمــد نعــيم العرقسوسى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٩ ، ١٤١٣هـــ،١٨/٨٢،٨١ ومكي بن أبى طالــب أحد علماء التفسير و القراءات بالأندلس ولد بالقيروان سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م ومن أشهر كتبه في التفسير الهداية إلى بلوغ النهاية و إعراب القرآن ، و أبو عمرو الــداني هــو شــيخ مدرســة القراءات بالأندلس و له في علم القراءات عدة مؤلفات منها كتاب التيسير لمزيد من التفاصــيل عنهما ، أنظر: المقرى ، نفخ الطيب ،٢/٣٣٥-٣٣٧،٤/١٧١.

(١٧) من أشهر مناظرات ابن حزم ما وقع بينه وبين أبى الوليد البــاجى حــول أصــول المــذهب المالكى، وما وقع بينه وبين الليث بن حرفش العبدرى فى مجلس القاضى عبدالرحمن بن بــشر وفى حضرة العديد من فقهاء المالكية ، وكان موضوع التناظر يدور حول (القول بكتمان الإمام مالك للحديث الصحيح والناسخ ولم يظهرهما حتى مات) ، ومن ذلك ما وقع بينه ويــين كبيــر أصحاب القياس – لم يذكر اسمه – حول حجية القياس فى مجلس حافل بالمالكية . عــن ذلــك بالتفصيل أنظر : ابن حــزم ، الإحكــام فــى أصــول الأحكــام، دار الحــديث، القاهـــرة، ط٢،١٤١٣هـــــ/١٩٩٢م ، ١/٢٤٢ ، ٢/٣٨٩ ، ٣٩٠ ، عبدالباقى السيد ، ابن حزم، ص٧٤-٧٨.

(١٨) أنظر : النبذة الكافية فى أصول أحكام الدين ، تحقيق محمــد ســعيد البــدرى ، دار الكتــاب المصرى واللبنانى ، القاهــرة -بيروت ، ط١،١٤١٢هـــــــ/١٩٩١م، ص ٧١-٨٦،٨٢-٩٠؛ المحلى بالآثار شرح المجلى بالاختصار، تحقيق، عبــدالغفار ســليمان، دار الكتــب العلميــة، بيروت،١٤٠٢هـــــ/١٩٨٨م ؛ ١/٧٨-٨٧

(١٩)أنظر : رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين، رسائل ، ٣/١١١، ٨٨

(٢٠) نقلا عن الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٨/٢٠٣، ٢٠٢

(٢١) أنظر المحلي، ٧/٥٦٩، ٥٦٨؛ وانظر: إحسان عباس ، رسائل ابن حزم ، ٢/١٨١هامش (١)

(٢٢) نقلاعن الكناني ، مؤلفات ابن حزم ورسائله بين أنصاره وخصومه، مجلة الثقافة المغربية، شوال – ذوالقعدة١٣٨٩هـ/يناير–فبراير١٩٧٠م ، ص٩٥، ٩٤ ، وابن سهل هو احد فقهاء الأندلس المتعصبين للمذهب المالكي تولى القضاء وله عدة مصنفات أشهرها الأحكام الكبرى . أنظر: النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص٩٦–٩٧.

(٢٣)انظر الحميدي ، جذوة المقتبس ، ٢/٤٨٩–٤٩١؛ ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، مجلد ١قسم ١ص١٦٧؛ الفتح بن خاقان ،مطمع الأنفسي ، تحقيق محمد علي شوابكه ، دار عمار مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٢٨٠، ٢٧٩، الذهبي ، سير أعلام ، ١٨/٢٠١، ١٨٧، ١٨٤؛ السيوطي ، طبقات الحفاظ ، تحقيق على محمد عمر، مكتبة وهبه، القاهرة ، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٤٣٦؛ ابن العماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، (د.ت) ، ٣/٢٩٩.

(٢٤) الذهبي ، سير، ١٨/١٨٤.

(٢٥) نقلا عن الذهبي ، سير ، ١٨/١٩٣، ١٨٧.

(٢٦) ابن العريف ، مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، تحقيق عصمت عبداللطيف دندش ، دار الغرب الإسلامى ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص٩١، ٩٣.

(٢٧) عبدالباقى السيد ، ابن حزم ، ص٢١١.

(٢٨) ابن حزم ، الفصل ، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ١/٣٧٦–٣٩٣ ، ٢/٢٦، ٢٥ ، ٣٤–٤٧ ، ١٦٨–١٨٦ ، ٣٦٦–٣٦٩ .

(٢٩) عبدالواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربى ، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط١، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م ، ص١٥١.

(٣٠) كان الميورقى فقيها ظاهريا محدثا عارفا بالحديث وعلله وأسماء الرجال ، توفى سنة ٥٣٧هـ. أنظر: ابن الخطيب ، الإحاطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجى ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ٣/١٩٠، ١٩١.

(٣١) حسين مؤنس، نصوص سياسيةعن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، ص٢٠.

(٣٢) نقلا عن الونشريسى ، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والمغرب، تحقيق جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجى، دار الغرب الإسلامى، بيروت،١٤٠١هـ/١٩٨١م ،٢/٣٤١-٣٤٤.

(٣٣) نقلا عن الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ١٨/١٨٩؛ وانظر : عصمت هانم عبداللطيف دندش ، الأندلس فى نهاية عصر المرابطين وبداية عهد الموحدين ، رسالة دكتوراة ، آداب عين شمس ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٣٦ .

(٣٤) كان محمد بن عبدالرحمن بن عوف(ت٤٣٤هـ/١٠٤٢م) فقيها مالكيا بميورقة ، وله مكانة مرموقة ، فلما قدم ابن حزم ميورقة قلت مكانته ونظرائه من المالكية بمساعدة أحمد بن رشيق حاكم ميورقة . أنظر عصام سالم سيسالم ، جزر الأندلس المنسية ، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٨٤م ، ص٥٠٥.

(٣٥) نفسه ، ص٥٠٧،٤٦٨،٥١٤. ، ص٥٠٧. ومن القضايا الخلافية بين المالكية والظاهرية التى تم الجدل والمناظرة فيها مسألة مس المصحف للجنب فقد ذهب المالكية إلى عدم جواز مس الجنب له ، فى حين أجاز الظاهرية ذلك ، وفيمن حرم على نفسه شيئا من المباحات ، قال المالكية لا يلزمه من ذلك شيء ما عدا الزوجه ، وقال الظاهرية لا يلزمه شيء من ذلك ، وفيمن أعسر ولم يستطع النفقة على زوجته قال المالكية يفرق بينهما ، وقال أهل الظاهر لا يفرق بينهما ، وفى شهادة العبد رفضها المالكية وأجازها الظاهرية ، وفى حد العبد إذا قذف الحر فقال المالكية نصف حد الحر ، وقال الظاهرية يحد حد الحر، إلى غير ذلك من المسائل أنظر : ابن رشد ، بداية المجتهد ، دار الفكر ، بيروت ، ١/٣١٠،٣٠ ، ٢/٣٤٧،٣٣١،٣٩.

(٣٦) قال ابن تومرت لعلى بن يوسف (قد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة ، وقد ظهرت بملكك المنكرات وفشت البدع ، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها ..) أنظر: ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، ص٢٢١.

(٣٧) نفسه ، ص ٢٢٤،٢٢٣ ، ٢٢٢؛ وتينملل قرية قديمة وقلعة منيعة بالسوس ، تقع على بعد كيلومتر واحد من الطريق الذاهب من مراكش لردانة أنظر: نفس المصدر ، ص٢٢٤ ، هامش ٣٢٦.

(٣٨) رسائل موحدية، تحقيق أحمد عزاوى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة ، ط١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ١/٤٣.

(٣٩) نفسه ، ١/٤٤-٤٧. وقد سمى المهدى أتباعه بالموحدين لاتباعهم فى نظره عقيدة التوحيد الخالص ، وستصبح كلمة التوحيد بعد ذلك ذات مدلول سياسى بمعنى الخضوع لدولة الموحدين.

(٤٠) أنظر: رسائل موحدية ،٤٨/١،٤٩ ، عبدالله على علام ، الدعوة الموحدية بالمغرب ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص٢٠٢،٢٠١.

(٤١) ومن ذلك قوله (فمعاذ الله أن نكفر مسلما كما قالوا أو نمنع من الصلاة على أهل القبلة أو نسقط الحقوق أو العبادات بالتوبة أو نطرح أئمة الدين وعلماء الأمة ، أو نرد المطلقة ثلاثا إلى زوجها من غير حق وزوج ، أو نخرج عن إجماع المسلمين أو نخالف أئمة المسلمين وأمراءهم . فهذه جملة ما نسبوا إلينا ولم نقل منه حرفا واحدا ولكن خرقوا ما قلنا ودلسوا به على الناس حتى أضلوا بتدليسهم كثيرا وقطعوهم عن ربهم وفتنوهم فى دينهم) أنظر : عبدالله على علام ، الدعوة الموحدية ، ص٢٠٣،٢٠٢.

(٤٢) صلاح السيد عبده رمضان ، التربية الإسلامية بالمغرب الأقصى فى عهد الموحدين ، رسالة دكتوراة ، كلية التربية ببنها ، جامعة الزقازيق ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ص٢٢٧،٢٢٨.

(٤٣) الكتانى ، مؤلفات ابن حزم ورسائله بين أنصاره وخصومه ، ص٨٦.

(٤٤) عبدالمجيد النجار ، المهدى بن تومرت حياته وآرؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص١٠٥.

(٤٥) أفتى ابن حزم بأنه إن وقع شيء من الجور وإن قل فمن الواجب أن يكلم الإمام فى ذلك ويمنع منه ، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن للقود من البشرة أو من الأعضاء ، ولإقامة حد الزنا والقذف والخمر عليه ، فلا سبيل إلى خلعه وهو إمام كما كان لا يحل خلعه. فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات ولم يراجع وجب خلعه وإقامة غيره ، ممن يقوم بالحق لقول الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) [سورة المائدة آية ٢] . أنظر : الفصل ، ١٠٦/٣.

(٤٦) أنظر : ديوان ابن حزم ، تحقيق صبحى رشاد ، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٦٣ المقطوعة الأولى الأبيات من ١-١٣.

(٤٧) أنظر : المحلى ، ١٢٣/١-١٣٢،١٣١،١٢٩.

(٤٨) أنظر : رسالة فى الإمامة ، رسائل ، ٢١٤/٣،٢١٣ ؛ الإحكام ، ٢٣٠/١.

(٤٩) ابن حزم ، التقريب ، رسائل ، ٩٨/٤-١٠١ ؛ رسالة فى الرد على الهاتف ، رسائل ، ١٢٢/٣.

(٥٠) نقلا عن ابن سعيد ، المغرب ، ٣٥٥/١.

(٥١) نقلا عن الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،١٩٩/١٨.

(٥٢) أنظر : المحلى ، ٤٣/٧-٦٢.

(٥٣) النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص٧٤،٧٥.

(٥٤) حسين مؤنس ، شيوخ العصر ، ص٧٠-٧٢.

(٥٥) ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس ، تحقيق لطفى عبدالبديع ، مجلة معه المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، ربيع أول ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ، مجلد١ ج٢ ص٣١٠،٣١١.

(٥٦) نقلا عن الحميدى ، جذوة المقتبس ، ٣٧٥/١ .

(٥٧) ابن حزم ، طوق الحمامة ، تحقيق الطاهر مكي، دار الهلال ، القاهرة،١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٢٥١.

(٥٨) ابن الآبار ، الحلة ، ٢٠٣/١.

(٥٩) ياقوت ، معجم الأدباء ، تحقيق أحمد فريد رفاعى، دار المأمون ومكتبة القراء والثقافة الأدبية، ٢٣٧/١٢ ، دوزى ، المسلمون في الأندلس ، ٢١٣/٢-٢١٥ ، وانظر الطاهر مكى ، دراسات عن ابن حزم ، دار المعارف، القاهرة ، ط٤، ١٩٩٣م، ص١٠٩.

(٦٠) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٢٣٧/١٢ ، محمد أبوزهرة ، ابن حزم حياته وعصره ، ص٤٧.

(٦١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٥،٦.

(٦٢) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ١٩٦/١٨.

(٦٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ١٢٨/٢؛ وانظر: عبدالباقى السيد ، ابن حزم ، ص٧٦،٧٨.

(٦٤) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص١١١،١٢٨.

(٦٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٣٠/٣ ؛ وانظر: ياقوت ، معجم الأدباء ، ٢٤٠/١٢. خرج ابن حزم من وسط أسرة عرفت الإسلام منذ جده الأعلى يزيد بن أبى سفيان ، وكان خلف أول من دخل الأندلس من أسرته فى صحبة الأمير عبدالرحمن الداخل ، وكان مقامه فى لبلة ، وقد بدأت هذه الأسرة تحتل مكانها الرفيع كواحدة من كرائم العائلات بالاندلس فى عهد الحكم المستنصر ، ونجحت فى امتلاك قرية بأسرها هى منت ليشم. أنظر : عبدالباقى السيد ، ابن حزم ، ص٤٦.

(٦٦) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٢٩/٣.

(٦٧) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ٣٤/٢ ، ٧٠،٧١.

(٦٨) بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص٢١٥.

(٦٩) الضبى ، بغية الملتمس ، ص٨١.

(٧٠) ابن بشكوال ، الصلة ، ٣٤٠/٢،٦٧٤.

(٧١) نفسه ، ٨٦٦/٣،٩٣٧

(٧٢) هناك كتب كثيرة صدرت عن ابن تومرت من أفضلها ما كتبه الدكتور عبدالمجيد النجار كتب كتابين أحدهما عن فكره والآخر عن تجربته الإصلاحية ، وكتب عنه عبدالله علام عند حديثه عن عبدالمؤمن بن على ، وكتب عنه البيدق تلميذ ابن تومرت وإن كان قد اشتط فى أمور ،

وكتب عنه ابن أبى زرع فى روض القرطاس ، وكتب عنه الذهبى فى سير اعلام النبلاء وفى تاريخه ، وغير ذلك كثير

(٧٣) من الأمور التى روجت ضد المهدى وكان من جملة من روجها واحد من أساتذتى المتخصصين فى المغربيات إذ قال عنه أن قوام مذهبه العقيدة الشيعية وهذا باطل ، ومن طالع كتاب ابن تومرت أعز ما يطلب علم أن الرجل ليس له من التأثير الشيعى إلا قول العصمة ، وقوام نظرية الشيعة فى الإمامة هدمها ابن تومرت لما اعترف بخلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن بن على ، وقال مدة الخلافة بعد النبى ثلاثين عاما فهذا ضرب لصميم العقيدة الشيعية ، وليت من يروج الاباطيل يطلع على كلام الرجل أولا.

(٧٤) أنظر : العبر ، ٤٦٦/١١.

(٧٥) لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر : عبدالباقى السيد عبدالهادى ، الظاهرية والمالكية واثرهما فى المغرب والأندلس فى عهد الموحدين ، أطروحة دكتوراة مخطوطة ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، ص١٩١ وما بعدها .

(٧٦) توفى رحمه الله عن عمر يناهز السبعين تقريبا ... يوم السبت ٢٦ شوال ١٤٣٢هـ/ ٢٤ سبتمبر ٢٠١١م طاويا صفحة أمضاها فى جهاد متصل فى رحاب العلم ...... لقد كان هذا الرجل رحمه الله آية من آيات الله فى العلم وفى التحريض عليه والبحث عنه ... ولقد منحنى الله من القرب منه والصلة به ما لم يمنحه لغيرى إلا ما رحم ربى .... فلقد لازمته رحمه الله قرابة الاربعة عشر عاما .... درست على يديه فى السنة التمهيدية للماجستير ... واشرف على فى الماجستير وصمم أن يكون الموضوع عن ابن حزم لأجل تصميمى ..... ثم اشرف على فى الدكتوراة وصمم أيضا أن يكون الموضوع عن الظاهرية والمالكية لأجل تصميمى .... ولقد كان محرضا لى للمضى قدما فى طريق العلم بكل صنوفه واشكاله .... ولقد جرى لى معه من المواقف ما يعجز القلم واللسان عن ذكرها فى موقف كموقفى هذا ... فالرجل كان والدا لى رحمه الله قبل ان يكون استاذا .... وكنت إذا ما زرته فى بيته وأردت أن أكتب شيئا أجلسنى على مكتبه الذى كان يعتز به اعتزازا منقطع النظير لأنه كان لوالدته التى كان يحبها حبا شديدا الاستاذة الدكتورة سعاد متاهر رحمها الله ... أشهر اساتذة الآثار الإسلامية فى مصر والعالم العربى وأول عميدة لكلية الآثار بالقاهرة ...... لا أملك إلا أن أدعو له بالرحمة والمغفرة وأن ينور الله ضريحه ويفسح له فى قبره وأن يرفع فى العالمين ذكره .... وأدعو كل أحبابى بالدعاء له

(٧٧) المقرى ، نفح الطيب ، ١٩٥/٣.

(٧٨) الناصرى ، الاستقصا ، ١٤٥/٢ ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص١١٧.

(٧٩) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص١٦٥ ، المراكشى ، المعجب ، ص١٩٩.

(٨٠) المراكشى ، المعجب ، ص٢٣١،٢٣٢ ، ابن سماك العاملى ، الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، ١٩٨١م-١٩٨٢م ، مجلد ٢١ ، ص٦١،٦٢.

(٨١) المراكشى ، المعجب ، ٢٣٣،٢٣٤.

(٨٢) اعتمد ابن حزم فى فتواه على قول الرسول (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) أنظر : ابن حزم ، المحلى ، ٦٦/١، ٤٢٣/٨ ، الفصل ، ٥،٤/٣ ، والحديث رواه مسلم فى كتاب الإمارة من صحيحه .

(٨٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ١١/٧،١٢.

(٨٤) المنونى ، حضارة الموحدين ، ص٢٥،٢٦،١٢٥،٢١.

(٨٥) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص٢٢٨.

(٨٦) ابن حجر الهيتمى ، الفتاوى الحديثية ، نقلا عن المنونى ، حضارة الموحدين ، ص٨٣ .

(٨٧) أبوراس العسكرى ، الخبر المغرب ، نقلا عن المنونى ، حضارة الموحدين ، ص٨٣ ، هامش ٨.

(٨٨) نقلا عن عليش ، فتح العلى المالك فى الفتوى على مذهب مالك ، دار الفكر ، (د.ت) ، ١٠٣/١،١٠٢.

(٨٩) أنظر : المدونة الكبرى برواية سحنون بن سعيد، دار صادر ، بيروت ، ٩١/١.

(٩٠) الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٦٦٩.

(٩١) أنظر : المعجب ، ص٢٣١،٢٣٢.

(٩٢) المراكشى ، المعجب ، ص٢٣٢.

(٩٣) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص٢٢٧ ؛ وانظر : عزاوى ، رسائل موحدية ، ٤٩٤/١،٤٩٥،٤٨٣، ٤٢٤.

(٩٤) المراكشى ، المعجب ، ص٢٧٨-٢٨٠.

(٩٥) ابن الأبار ، التكملة ، ٨٨٥/٢ ؛ وانظر:النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص١١٧ ؛ أحمد بكير ، المدرسة الظاهرية ، ص٦٤.

(٩٦) الناصرى ، الاستقصا ، ٢١٧/٢.

(٩٧) توفيق الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٣٠٨،٣٠٩.

(٩٨) ابن الأحمر ، بيوتات فاس ، ص١٩ ، وابن طاهر من أهل مدينة فاس كان متصوفا اتصل بالمنصور الموحدى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م فحظى عنده ، وكان عالما بأصول الدين وأصول الفقه ، ومسائل الخلاف ، ولى قضاء الجماعة للمنصور ، ثم ولى قضاء الجماعة للناصر بعد

أبيه ولم يزل كذلك حتى وفاته سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م أنظر : ابن أبى زرع ، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢م ، ص٤٨.

(٩٩) حسين مؤنس ، عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبدالله المعروف بالخليفة الناصر الموحدى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ديسمبر ١٩٥٠م ، مجلد١٢ ، ج٢ص١٤٨،المنونى ، حضارة الموحدين ، ص٣٧، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص١٠٩، ديلاسى أوليرى ، الفكر العربى ومكانته فى التاريخ ، ترجمة تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٧م ، ص١٧٤،١٧٢، سعد زغلول عبدالحميد ، محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والأندلس ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٣م ، ص٢١، محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، ج٣ طور الانهيار ، القسم الأول ، ص١٧٥ ، عادل يحيى عبدالمنعم ، العلم والتعليم فى المغرب العربى من الفتح إلى نهاية دولة الموحدين ، رسالة ماجستير ، بنات عين شمس ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، ص٧٥.

(١٠٠) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص٤ ؛ عبدالله العروى ، تاريخ المغرب ، ترجمة ذوقان فرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ص١٧٦ ؛ الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٦٢٣.

(١٠١) محمد بن تومرت ، أعز ما يطلب ، ص١-٥ ، ١١-١٨ ، ١٦٣-١٦٥ ، ٢٥٨-٢٦٦ ؛ وانظر : الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٦٣٦-٦٦٠.

(١٠٢) ابن تومرت ، مصدر سابق ، ص٣١٣-٣٧٦.

(١٠٣) عبدالمجيد النجار ، المهدى بن تومرت ، ص٣٦٢.

(١٠٤) أنظر : شرح رقم الحلل ، تحقيق عدنان درويش ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٠م ، ص٥٧.

(١٠٥) أنظر : المعيار المغرب ، ٣٦١/٢.

(١٠٦) اسماعيل بن الأحمر ، بيوتات فاس الكبرى ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢م، ص١٩ ؛ وانظر: المنونى ، حضارة الموحدين ، ص٣٧،٣٨.

(١٠٧) العباس بن إبراهيم ، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٧٤م-١٩٧٧م ، ٣٩٦/٨.

(١٠٨) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ٢٥٥ ، الناصرى ، الاستقصا ،١٢٥/٢ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، دار الفكر ، ٣٢٢/٤.

(١٠٩) المراكشى ، المعجب ، ٢٣١؛ وانظر: النويرى ، نهاية الأرب ، ٣٣٨/٢٤،٣٣٩ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ١١/٧ ، المقرى ، نفح الطيب ، ١١٤/٣.

(١١٠) قال صاحب بيوتات فاس عن الناصر بن المنصور " كان كأبيه لا يحكم إلا بمحض الظاهرية ، وأن الفقهاء من المالكية أنكروا عليه ذلك وقالوا : الحق هو مذهب المدونة فأمر بجمع ما وجد من النسخ منها بالمغرب وإحراقها فأحرقت عن آخرها " أنظر: إسماعيل بن الأحمر ، بيوتات فاس الكبرى ، ص١٩؛ الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٤٥٨.

(١١١) المراكشى ، المعجب ، ص٣٠٨-٣١٠ ؛ وانظر: بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص٢٣٨.

(١١٢) النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١١٠. وجزيرة شقر تقع بين بلنسية وشاطبة ، ومدينة جيان كوره تتصل أحوزها بأحواز كوره البيرة ومسافة ما بينها وبين قرطبة خمسون ميلا أنظر : ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥.

(١١٣) المقري ، نفح الطيب ، ٣٦٣/٢ ؛ وأنظر عبد الحليم عويس ، ابن حزم ، ص ٣٥٠ ، ٣٦٠. وعن إبن العربي أنظر : أسين بلاسيوس ، ابن عربى حياتة ومذهبه ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ٥ -٩٩ .

(١١٤) المقري ، مصدر سابق ، ٢ / ٣٦٣ ؛ وأنظر: بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢١٩.

(١١٥) أحمد بكير ، المدرسة الظاهرية ، ص٥٩ ؛ وانظر: أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، ١٩٦٢م ، ٩٥،٩٦/٣ ؛ خديجة الحديثى ، أبوحيان النحوى ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٦م ، ص٣١٩.

(١١٦) توفيق الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٣٠٣.

(١١٧) ابن الابار ، التكملة ، ٦١٦/٢ ؛ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٣١١/٢٢.

(١١٨) ابن العربى ، العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٤١٢م ، ص٢١ ؛ وانظر : المقرى ، نفح الطيب ، ٣١/٢ ، ٢٥ .

(١١٩) المقرى ، نفح الطيب ، ٥٨،٥٧/٢ ؛ وانظر : محمد الرشيد ملين ، عصر المنصور الموحدى ، ص٢٥٤.

(١٢٠) الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٧١١.

(١٢١) ابن العربى ، العواصم من القواصم ، تحقيق عمار الطالبى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ٣٣٧،٣٣٦/٢.

(١٢٢) نقلا عن الكنانى ، مؤلفات ابن حزم ، ص٩٧.

(١٢٣) أنظر : المعجب ، ص٤٩.

(١٢٤) أحمد بكير ، المدرسة الظاهرية ، ص٦٤.

(١٢٥) الناصرى ، الاستقصا ، ١٩٩،١٩٨/٢.

(١٢٦) الونشريسى ، المعيار ، ٣٤١/٢.

(١٢٧) المراكشى ، المعجب ، ص ٢٥٦،٢٥٥.

(١٢٨) إسماعيل بن الأحمر ، بيوتات فاس الكبرى ، ص١٩.

(١٢٩) المراكشى ، الذيل والتكملة ، السفر الأول ، القسم الأول ، ص٤٠٨.

(١٣٠) الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٢٩٧،٢٩٨،٣٦٣.

(١٣١) أنظر : المعجب ، ص٢٣١،٢٣٢.

(١٣٢) نقلا عن المقرى ، نفح الطيب ، ١١١/٣.

(١٣٣) ابن الأحمر ، بيوتات فاس ، ص١٩.

(١٣٤) العباس بن إبراهيم المراكشى ، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، ٣٩٦/٨.

(١٣٥) أنظر : بيوتات فاس ، ص٢٠،٢١. ويعقوب هو ابن عبدالحق المرينى ولد سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م وتولى الحكم بعد وفاة أخيه أبى بكر سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وهو الذى قطع مملكة بنى عبدالمؤمن ومحى آثارهم ، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين من ملوك بنى مرين أنظر : ابن أبى زرع ، الذخيرة السنية ، ص٨٥.

ومن عهد يعقوب المرينى بدأ التقليد يعود ثانية ، وانطفأت جذوة التجديد والاجتهاد ، وجددت كل فروع المالكية ونسى العلماء الأصول ثانية حتى قال قائلهم وهو أحمد بن عمر المزكلدى بفاس " ما نزل من السماء حكم إلا وهو فى المدونة" أنظر : ابن القاضى المكناسى، جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧٣م، ١٢٧/١.

(١٣٦) أنظر : القوانين الفقهية ، دار القلم ، بيروت ، ص٢٧٦.

(١٣٧) أنظر : سير أعلام النبلاء ، ٣١١/٢٢.

(١٣٨) أنظر : الاعتصام ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ،٢٥٦/١.

(١٣٩) أنظر : الاعتصام ، ١٧١/١.

(١٤٠) أنظر : تاريخ قضاة الأندلس ، ص١١٨.

(١٤١) أنظر : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلميـة، بيـروت، (د.ت) ، ٢٦٠/٢.

(١٤٢) أنظر : المعيار المغرب ، ٣٦١/٢.

(١٤٣) أنظر : شذرات الذهب ، ٩٦/٥.

(١٤٤) أنظر: الرد على من يقبض فى صلاة الفرض، مخطوط ضمن مجمـوع الخزانـة العامـة بالرباط، رقم (١٧٢٤د)، ورقة ٦٠،٦١.

(١٤٥) أنظر : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص٢٣٨.

(١٤٦) أنظر : حضارة الموحدين ، ص٣٧.

(١٤٧) أنظر : عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية ، ص٢٠٣.

(١٤٨) أنظر : الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى ، دار التراث ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٦هـ ، ١٧٢/٢.

(١٤٩) الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٦٨٥،٦٨٦.

(١٥٠) أنظر : قيام دولة الموحدين ، ماجستير ، آداب عين شمس ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ص٢١٤.

(١٥١) أنظر : ابن حزم حياته وعصره ، ص٥٧٧-٥٨٢.

(١٥٢) أنظر : ابن حزم خلال ألف عام ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ٨٢/٢،٩.

(١٥٣) أنظر : ابن حزم الأندلسى ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ص٢٠٥.

(١٥٤) أنظر : ابن حزم الظاهرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص١٦٢.

(١٥٥) أنظر : تاريخ الفلسفة الإسلامية فى المغرب والأندلس، دار الجيل، بيروت، ط١٤١٧،١هـ/١٩٩٧م ، ص٢١٢.

(١٥٦) أنظر : ابن حزم الأندلسى عصره ومنهجه وفكره التربوى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، (د.ت) ، ص٩٨.

(١٥٧) توفيق الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس ، ص.ذ،٧.

(١٥٨) أنظر : الردود على ابن حزم بالأندلس والمغرب من خلال مؤلفات ابن حزم ، مقال بمجلة الأحمدية ، دبى ، محرم ١٤٢٤هـ/مارس ٢٠٠٣م ، عدد١٣ ، ص٣١٩.

(١٥٩) عبدالله علام ، الدولة الموحدية ، ص٣١٢.

(١٦٠) المراكشي ، المعجب ، ص ٢٧٨- ٢٨٠ ؛ وانظر، خوليان ريبيرا ، التربية الإسلامية، ترجمة الطاهر مكى، دار المعارف، القاهرة، ط٢ ، ١٩٩٤م ،ص ٣٠، ٣١.

(١٦١) محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، نشر جولد زيهر، الجزائر، ١٩٠٣م، ص ١٦٣ ـ ١٧٣؛ وانظر: Goldziher, le Liver le MohammedI ibn Toumert Mahdies, Al ger, ١٩٠٣, p٥٠ - ٧٠.

(١٦٢) المراكشي ، مصدر سابق ، ص ٢٧٩؛ وانظر، عبدالحليم عويس ، ابن حزم الأندلس وجهوده فى البحث التاريخى والحضارى، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٤.

(١٦٣) المراكشي ، السابق ، ص ٢٧٩، ٢٨٠؛ وانظر، أحمد رمضان، الخلافة فى الحضارة الإسلامية، دار البيان العربى للطباعة والنشر والتوزيع، جدة ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ١١٥، ١١٦.

(١٦٤) أحمد بكير، المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب ، دار قتيبة ، بيروت ــ دمشق ، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، ص ٦٥، ٦٦.

(١٦٥) ابن حزم ، الفصل ، ٢/٣-١٢ ، وانظر : أحمد رمضان ، الخلافة ، ص١١٥،١١٦.

(١٦٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، تحقيق محمود على مكى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط ، (د.ت) ، ص٤ ؛ وانظر: الكنانى ، مؤلفات ابن حزم ، ص٨٦؛ الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، دار ابن حزم ، الرياض ، ط١ ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٦٢٣.

(١٦٧) المراكشى ، الذيل والتكملة ، تحقيق محمد بن شريفه ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤، القسم الأول ، السفر الأول ، ص٢١٨-٢٢٢.

(١٦٨) المراكشى ، المعجب ، ص٢٣٢؛ وانظر : المقرى ، نفح الطيب ، ٢٢٢/٤.

* * *